رسائل إلى الشباب المسلم
(٣)

أحاديثُ إلى الشَّبابِ المسلم

أنور الجندي

أَحَادِيثٌ
إلى الشَّبَاب المسْلم

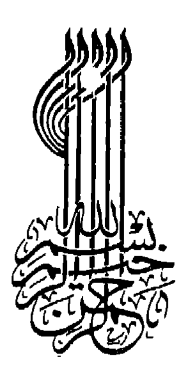
الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة

الإدارة : ٧ ش السراى - أول المنيل ت . فاكس : ٩٨٧٩٢٤

الفرع : حدائق حلوان - بجوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١



« ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » .

(سورة فصلت)

أصل كل نهضة

نقطة البدء فى كل نهضة هى العقيدة : والإسلام وحده هو العقيدة القادرة على إطلاق طاقات هذه الأمة ، والإسلام منهج حياة وليس نظرية ، وفرق بينهما ، فالمنهج أصل ثابت متصل بالكون ، والحياة ، والإنسان من خلال الوحى والفطرة . أما النظريات فهى من صناعة العقل البشرى .

ولقد ذاعت نظريات كثيرة ولمعت ، ولكنها عجزت عن العطاء الحقيقى للنفس الإنسانية والعقل البشرى فى آن ، ولذلك فهى سرعان ما تصعدت وبان بمرور الزمن فسادها ، وقد حاول أهلها إدخال اصلاحات وتعديلات كثيرة عليها . وبذلك انكشف للناس الفارق الكبير بينها ، وبين مناهج القرآن الثابتة ثبوت الفطرة المرنة مرونة حركة الإنسان ، القادرة على إعطائه مطامحه البشرية وأشواقه الروحية فى آن ، فهى قائمة على أساس الفطرة الإنسانية التى لا تتغير فى أصولها ، والتى تستطيع استيعاب كل تغير وتطور وتجديد ، دون أن تفقد أصالتها وضوابطها .

ولقد جعل الإسلام قاعدته الأصيلة ، الاعتقاد بوجود الله الواحد الأحد الذى لا يتغير بتغير الزمان ، أو المكان ، وهو الحقيقة الواحدة التى لا يأتيها الباطل من قريب ولا بعيد مهما تحداها الناس بالإنكار والنفى .

لقد دعا الإسلام إلى وحدانية منزهة لا شائبة فيها ، ولم يلجأ فى إثبات هذه الدعوة إلى خوارق العادات ، أو القوارع التى تخرس الألسنة ، بل إلى الدليل والبرهان عن طريق العقل والوجدان والنظر فى الكون .

الدين فطرة أصيلة :

ليس الدين مرحلة فى حياة الأمم : وليس صحيحا أن الأمم قد تجاوزت مرحلة الدين ، أو أن الدور الذى احتاجت فيه البشرية إلى الدين قد انتهى ، والواقع أن الدين فطرة انسانية أصيلة ، وليس مرحلة فى تركيب الإنسان ، متصل بعقله وررحه وحياته ، لا سبيل إلى انفصاله ، أو انتزاعه ، فإذا جاءت موجة من موجات الفكر البشرى لتضع بين النفس الإنسانية وبين الدين ستارا أو حجابا ، وجدت البشرية نفسها فى دوامة من التمزق والضياع والإحساس العميق بغيبة شىء لا سبيل إلى الحياة بدونه .

ولذلك فإن القائلين بأن الدين ليس مصدرا من مصادر التوجيه ينكرون الفطرة ، ويتجاهلون شطرا كبيرا من طبائع الأشياء والنفوس .

والبشرية لم تكن فى يوم من الأيام قادرة على حماية نفسها من المطامع والحروب والصراع – حتى بعد أن أحرزت مفاتيح العلوم وعرفت سنن الطبيعة، بل لعلها لم تكن فى يوم من الأيام أشد منها فى هذه الأيام صراعا واندفاعا واستعدادا ، والإنسان هو الإنسان مهما تقدم فى مضمار السبق العلمى ، وما لم تتقدم مفاهيمه النفسية والروحية فتعلو به على الهوى والمادة والمطامع ، فهو يستعمل كل ما أحرزه من تقدم فى سبيل الشر ولن يكون الإنسان آمنا على نفسه ومجتمعه إلا إذا كان مؤمنا بالله ملتزما منهجه متحركا داخل إطاره .

الدِّينُ الإِسلامِيُّ أُسْلُوبُ حَيَاةٍ

ما من دين استطاع أن يوحى إلى المتدينين به شعورا بالعزة ، أو الكرامة كالشعور الذى يخامر المسلم منْ غير تكلف ولا اصطناع ؛ ذلك لأن الإسلام ليس دينا تعبديا فقط ولكنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهرا وباطنا ، فهو يسمو على أن يكون مجرد فكرة يناقشها ، أو نظرية يتأملها .

وما من دين استطاع أن يقدم للمؤمنين به سكينة النفس وطمأنينة القلب ، ويحجب عنه الانحراف والاضطراب والتمزق والضياع وتلك أبلغ مطالب الانسان وأقوى تطلعاته ، **بل إن رفاهية الإنسان الحقة هى فى إيمانه وسكينته وطمأنينة قلبه** ، وكرامته المثلى فى أن يكون زاكيا فوق مطالب الأديان ودوافع الغرائز ، واذا كان هذا هدف الحضارة الحقة ، وأمل البشرية الأكبر فإنه لن يتحقق إلا بالدين والإيمان واليقين ، وكل سبب من أسباب الطمأنينة والأمن والرضى منتزع من الإنسان بانتزاع نفسه من الدين .

ولقد آن للبشرية أن تعلم أن هذه المناهج المبثوثة لن تحقق لها شيئا مما ترجو من سكينة النفس ، أو سعادة الحياة ، ولا سبيل لها إلى هذا الهدف وهو أغلى الأهداف إلا بأن تلتمس المنهج الربانى الذى رسمه لها الله ، صانع الإنسان والحياة فهو وحده السبيل الذى سيحقق لها طمأنينة القلب وهناءة الحياة ولتجرب كما جربت .

دور الإيمان فى حياة الإنسان :

ليس غير الإيمان بالله بلسم للروح ، أو شفاء للصدر ، أو ترياق لأمراض القلق والحيرة والشك والارتياب ، وكيف يمكن أن يكون الإنسان قادرا على مواجهة شدائد الحياة بشجاعة وصبر دون الإيمان بالله .

عندما يتمثل الإنسان ربه الخالق المدبر المحيط بالأمر كله تمتلىء نفسه بالاطمئنان لكل ما يقع فى حياته فلا يستسلم لليأس ، ومن ثم يتجدد أمله كلما أخفق لجولة أخرى فيها النصر والفوز ، فإذا عرف أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، قوى أمله المتجدد وزاد فى كفاحه وسعد .

والمسلم دائما فى موقف الرضا والأمل فى حالة العسر واليسر ، ولا تذهب نفسه مذهب التشاؤم ، لأنه يؤمن برحمة الله أولا ، وعدله ثانيا ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، أما فى الغرب فإن التشاؤم ظاهرة أساسية للنفس مصدرها عقيدة الخطيئة الأصيلة وعدم إقناع العقل وقبول الفطرة لوراثة البشر خطيئة لم يرتكبوها ، ولقد ساد الغرب طابع الوجدان المتشائم نتيجة هذه القضية وظهرت آثارها القوية على الآداب والفنون والفلسفة والأخلاق ، وهى التى وصلت بهم إلى فكرة اللامعقول والعبث ، وتعد الوجودية أعلى مراتب التشاؤم .

القيم التى فرضها الإسلام :

إن الإسلام فوق كونه دينا كسائر الأديان فهو حركة اجتماعية واسعة تشمل الاعتقاد والمجتمع والأخلاق والدولة ، إن ميزة الإسلام أن نظرته كلية شاملة فهو لم يجزىء الحياة ، بل نظر إليها نظرة كاملة على أنها متصلة الأواحد مترابطة الأطراف ، والقرآن كتاب الله ومصدر النظرة الإسلامية .

ولقد جعل الإسلام للقيم سلما وأوليات وحصصا ، وجعل ترتيب هذه القيم حسب أهميتها ، هذه الأوليات والنسب تظل ثابتة ، فإذا تغيرت فسدت المجتمعات وأصابها الاضطـراب فلقد جعل التوحيد والعمل والجهاد والزكاة والعبادة فى مقدمة سلم القيم ، وجعل للجسم والمال والزينة والمتاع حصصا أيضا فلم يغفلها ولكنه وضع لها مقاديرها وضوابطها ، فإذا ذهبنا نقدم الرغبات والأهواء ضعفت نسبة الأعمال الكبرى وقل قدرها ، وهنا تحدث الأزمات أزمات النفس والمجتمع ، فإذا عاد المسلمون إلى سّلم القيم مرة أخرى عادت إليهم القوة والكفاءة .

وإن من أبرز حقائق الإسلام أنه لا يفرق بين الناس على أساس العنصر أو العرق ، ويقر التفاضل على أساس العمل والسلوك ، ولا يعرف الإسلام الرهبانية، أو الترف، ولايرفع الإنسان عنمستواه البشرى ويفرق بين الألوهية والنبوة وهو يربط بين الدين والدولة ، والدين والعلم ، والدين والأخلاق .

إن أخطر ما يواجه الفكر الإسلامى هو محاولة تجزئته أو فرض مفهوم الانشطارية الغربى عليه ، ولقد جاء الإسلام حاكما على المدنيات والأمم ولم يجىء

محكوما ، وهو ليس مطية الدعوات والمذاهب ، بل له مقوماته الأصيلة وأحكامه المستقلة وذاتيته الخاصة .

موقف الإسلام من القوتين (المادية ، والروحية) :

غالت بعض الأديان فى تقدير القوة المادية ، وغالت بعض الأديان فى تقدير القوة الروحية ، أما الإسلام فقد وازن بين الناحيتين على أساس أن كلا منهما عنصر أساسى فى الطبيعة البشرية لا غنى عنه لتقدم الإنسان ولقد تقرر أن القوة المادية ، أو القوة الروحية ليست خيراً ، أو شراً فى حد ذاتها بل فى طريقة استعمال الإنسان لها . وتأثيرها النهائى إنما يتحدد بالهدف الذى تستخدم له فإذا ما استخدمت لإستعباد الناس وإذلالهم كانت نقمة ، وهنا تأتى أهمية الدور الذى يؤديه الدين حيث تكون مهمته توجيه الطاقات كلها إلى الخير ، وإلى الإخاء الإنسانى .

كيف عالج الإسلام الإنسان ؟

وقف الإسلام أمام الإنسان موقفا متميزا ، مخالفا لموقف الفلسفات والعقائد ، وقد أقام الإسلام هذا الموقف على أساس تكريم الإنسان بوصفه موضع الاستخلاف فى الأرض ، والنظر إليه من خلال طبيعته الأصلية الجامعة بين الروح والجسم ، والعقل والقلب ، وبوصفه كيانا متكاملا ، وبذلك أقر رغباته المادية كلها وأباحها له دون أن يقيدها إلا بضوابط قصد بها حماية الإنسان نفسه من الانهيار والتدمير ، وحتى يكون قادرا على أداء رسالته ومواجهة تحديات عصره دون أن يضعف أو يتحطم .

وجعل سعيه فى الحياة الدنيا مرتبطا بالجزاء فى الآخرة ، وأعطاه المسئولية الفردية ، والالتزام الخلقى لكى يواجه العالم من منطلق الكرامة ، وجعل مسيرته كلها خالصة لله . فالإنسان فى مفهوم الإسلام ، روح وعقل وجسد ونفس ، وكل التفسيرات التى تتناوله من جانب واحد هو جانب الجسد كالمادية الغربية ، أو جانب الروح كالمذاهب الشرقية كلاهما خاطىء ، كذلك تفسير حياته وتاريخه من مصدر واحد هو الطعام ، أو الجنس ، أو البيئة هو تفسير انشطارى فاسد

لا يصل إلى الحقيقة ، وليس هناك منهج متكامل لفهم الإنسان فى العبادة كلها سوى منهج الإسلام والإنسان فى مفهوم الإسلام ثابت الجوهر متغير الصورة ، ولا يرفع الإسلام الإنسان عن مستواه كمستخلف فى الأرض ، ولا يخفضه عن مكانته ؛ فالكائن الانسانى كل متسق فى حياة بأبعادها الثلاثة : الجسدية والنفسية والاجتماعية فى كل أزمة يصاب بها لابد أن تكون النظرة شاملة لهذه الجوانب ، دون فصل بينها .

الفكر الذى يبغضه الإسلام :

الأسلوب الذى قدمه القرآن للمعرفة هو الأسلوب العميق الفطرى ، المتصل بالقلوب والعقول والأرواح والعواطف ، هو الطريق الذى أقنع راعى الإبل والصياد واجتذب الطفل والمرأة والمثقف والجاهل بعيدا عن التعقيدات المنطقية والعقلية ، وهو طريق الأنبياء ، وهو أصح طريق للأجيال المتجددة ، وهو أصح وأسلم وأعمق أثرا من أساليب الفلاسفة والمعتزلة والصوفية على السواء ؛ لأنه منهج القرآن

يقول الإمام الغزالى : (إن أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستضر به الأكثرون ، بل أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى الرضيع والرجل القوى ، وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها مرة أخرى ولا ينتفع بها الصبيان أصلا .

ولقد جاء الإسلام بفكرة رئيسية فى المعرفة : هى فكرة الحق ، فى كل شيء فيما يتعلق بالكلام عن الله وعن أساس الحكم على الأشياء ، وجاء يحارب التقليد والجمود ، ويحارب الرأى القائم على الظن والحكم القائم على الهوى ، ويطالب بالدليل والبرهان .

الإسلام منهج ثابت :

الإسلام منهج وليس نظرية ، منهج متكامل يستهدف تحقيق إقامة المجتمع البشرى ، الربانى المصدر ، الإنسانى الاتجاه ، وما يزال ارتباط الإسلام بمنابعه الأصيلة

من القرآن والسنة ، ونصه الموثق هو العامل الأول والأكبر الذى يحول دون سقوطه فى هوة الانحراف ، وهو الذى يعطيه القدرة الدائمة على إعادة تشكيل نفسه بعد الأزمات وفى مواجهة التحديات .

إن محاولة وضع الإسلام تحت ضوء المناهج العصرية المتحدة من الفكر المادى من شأنه أن يحجب حقيقة أبعاده . ولقد عجز علم الأديان المقارن عن تحليل الإسلام كما فعل مع بقية الأديان ؛ ذلك أنه أسقط أهم معالم هذا الدين **وهو الوحى والنبوة وعالم الغيب** .

فالإسلام الذى هو ليس من صنع البشر ، وليس كتابه من عمل البشر ، والذى يختلف عن المذاهب والنظريات الخاضعة لأهواء البشر ، والذى يستمد أصالته من مصدره الربانى ويتجاوب مع الفطرة والعقل والعلم ، ويوازى الطبيعة البشرية ، ولا يناقضها لتعجز أدوات العصر عن استيعابه إلا إذا درسته من خلال مناهجه هو .

إن للإسلام ذاتيته ومقاييسه الخاصة ، ومفاهيمه تنبعث من أصول ثابتة هى الوحى والفطرة والعقل بينما تنبعث مفاهيم الفلسفات من الفروض التى تبدأ بالظن وتبنى على القرائن ، **ومفهوم الإسلام** يقرر أن **لكل قيمة من القيم وجهيها المادى والمعنوى** لا انفصال بينهما ، بينما تقرر الفلسفات وجها واحدا إما ماديا أو معنويا ، فقد عجزت عن التكامل وقبلت بالانشطارية .

إن الله تبارك وتعالى قد اختار لهذه البشرية فى ختامها ثلاثة أمور : الإسلام دينا ، ومحمدا صلى الله عليه وسلم رسولا ، والقرآن كتابا ، واختار اللغة العربية لغة القرآن : لغة لأهل الجنة . وأنه حقق ثلاث ظواهر هامة : أولاها هيمنة القرآن على كل ما سبقه من كتب السماء وثانيها وراثة الإسلام والنبى محمد لتراث النبوة كله ، وميراث إبراهيم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وثالثها : إظهار الإسلام على الدين كله .

إن مفهوم الدين فى نظر الغرب هو إقامة العلاقة بين الإنسان والله ، وحسب ؛ دون أن يكون **للدين صلة بإقامة العلاقة بين** الإنسان والمجتمع فى شئون

الاقتصاد ، أو السياسة ، أو القانون ، أو التربية . وللغرب فى هذا الفهم للدين أسباب خاصة به ، وعوامل وظروف تاريخية تتصل بالدين وبالتفسير الغربى للدين ، ومدى ارتباط ذلك كله بالفكر اليونانى والقانون الرومانى والحضارة السائدة اذ ذاك ، فقد دخل الدين على أوربا وهى مشكلة تماما ، مجتمعا وحضارة، فاقتصر تأثيره على مجال الروح والأخلاق ، أما بالنسبة للإسلام فالأمر يختلف ، فقد شكل الإسلام مجتمعا من اللبنة الأولى على مفاهيمه وقيمه ومقاصده وإذا قال الغرب بفصل الدين عن السياسة ، أو عن المجتمع ، أو عن الأخلاق ، أو عن الاقتصاد فذلك شأنه ، وهو أمر متصل بتاريخه وظروفه . أما الإسلام فليس مفصولا عن ذلك كله ، بل مرتبط به فقد أقام البناء كله على أساس التكامل والوحدة .

لقد رفع الإسلام راية العقل والعلم والتجريب وحملها إلى العالم كله ، وكانت أوربا قبل الإسلام تعيش على الرهبانية والفكر النظرى المتصل بالسحر والأسطورة ، فكان الإسلام هو مصدر الانتقال من عالم النظر والتأمل إلى عالم التجريب .

الإسلام دعوة للتحرز :

إن أول الجهاد الدفاع عن روح الإسلام فى بلاده ؛ ذلك أن روح الإسلام إذا ضعفت فى المسلمين فلن يستطيعوا أن يحملوا أمانته إلى العالمين ، ولا أن يحتملوا فى سبيل تبليغه كل فتنة ومحنة ومشقة .

ولذلك فقد كانت دعوة الإسلام الأولى إلى التحرر من التبعية ، ومعارضة التقليد للأجنبى حتى لا يذوب المسلمون فى كيان الأمم ؛ بينما جاءوا ؛ ليحملوا للبشرية فكرا جديدا يختلف عن الفكر البشرى ، وربما يتعارض مع كثير من قيمه ومقولاته ؛ ذلك أنهم حملة رسالة التوحيد الخالص للعالمين ، وللتوحيد شارة واضحة قادرة على مواجهة كل الاشارات والنظريات بالرأى الواضح الصحيح .

ولذلك ، ولكى تكون هناك أمة قائمة بالحق إلى قيام الساعة حذر الإسلام المسلمين من التشبه بغيرهم وحرص على أن تظل شخصية المسلم وفكره وحضارته ومجتمعه متميزة ، ومن أجل ذلك أعلن حربا لا هوادة فيها على التقليد وعلى التبعية

« **من تشبه بقوم فهو منهم** » ودعا إلى إعلان التمييز فى القيم والأخلاق والمثل ولا ريب أن التقليد فقدان للشخصية ، والتبعية عبودية للفكر والعقل ، ولا ريب أن آفة الضعيف هى تقليد القوى ، ولا يجرى التقليد إلا فى جوانب الضعف والهدم والانحلال ويتركز دائما على الانهماك فى اللذات والتخلى عن القوة ، والتماسك ، أو الصمود .

ولا يمنع هذا الموقف من مراجعة كل ما تقدمه الأمم والأخذ بالصالح منه والانتفاع به على أن يكون المسلمون قادرين على تجاوز العناصر التى تدمر شخصيتهم وقيمهم وذاتيتهم .

ولذلك فإن الدعوة التى تدعونا إلى تقليد الغرب ومتابعته فى مظاهر الاجتماع والأخلاق هى دعوة تتعارض مع الأصالة ، والفطرة ، ومع طبيعة النفس الإسلامية ومزاجها الذى شكله الإسلام ، ولا ريب أن الظن بأن تلك التبعية تلحقنا بركبهم هى خطأ شائع ، ونصيحة ماكر ، ودعوة ضالة .

الإسلام وحرية البحث :

سوف يعجز العلم عن القضاء على الدين ، بل إن الحقيقة المرتقبة هو أن يؤكد العلم الدين ، ويعمل فى إطاره . فالإسلام يقرر الإطار الأخلاقى للحياة ، ويرسم منه العلاقات المثلى بين الإنسان والإنسان ، ويجعل العلم لذلك فى خدمة البشرية لا فى تهديدها وتدميرها لخدمة جماعة من المتسلطين .

ولا ريب أن الإسلام هو الذى أقام للعلم منهجه أصلا ومنطلقه أولا نتيجة حرية البحث وتسامح النفس وسلامة القصد ، فمهد ذلك كله لظهور المنهج التجريبى ، والعلم اليوم بالرغم مما تحوطه من مظاهر المادية وتضطرب حوله من انحرافات الفلاسفة ، فإنه قد خطا خطوات واسعة نحو إقرار الإيمان بالله ، والكشف عن عظمة الخالق ، والاعتراف بعالم الغيب ، وهو ما زال يعمل على تحرير نفسه من مفاهيم الفلسفات المادية والجبرية .
انحرافات الفلاسفة ، فانه قد خطا خطوات واسعة نحو إقرار الغيب ، وهو ما زال يعمل على تحرير نفسه من مفاهيم الفلسفات المادية والجبرية .

ونحن كمسلمين نؤمن بأن أى حديث عن الصراع بين العلم والدين ، فهو ليس عن ديننا ، ولا يتصل بتاريخنا ، وهو لمحيط غير محيطنا ، فإن تاريخنا كله لم

يعرف هذه التحديات ولا ذلك الصراع الذى يحاولون نقله الآن إلى أفق الفكر الإسلامى وهو منه براء .

ويكشف مدى صلة الإسلام بالعلم أن مادة (علم) وردت فى القرآن ٨٦٠ مرة وأن أول كلمة نزلت على النبى من القرآن هى « اقرأ » وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بالقلم وما يسطرون وقد أطلقت كلمة العلم فى الإسلام فلم تنحصر فى علم ما ، أو فى نوع معين .

ونحن نعلم أن ما وصل اليه الإنسان بعلمه عن هذا الكون هو قليل ، وأن هذا الذى علمه لا يستطيع أن يفسر له سر الكون ، أو الحياة ، وأن العلم على الرغم من غروره تواضع ، فأقر بأن **مهمته هى تفسير ظواهر الأشياء** .

ومن أبرز مفاهيم الإسلام التى تميزه تميزا واضحا عن الفكر البشرى أنه :

(أولا) : فصل بين الله والعالم (ثانيا) : فصل بين الألوهية والنبوة (ثالثا) : أنه قرر استحالة أن يرقى الإنسان إلى مرتبة الألوهية (رابعا) : ألغى الوساطة بين الله والإنسان (خامسا) : أنكر سقوط التكاليف الشرعية عن أى إنسان مهما بلغ قدره من الإيمان .

كذلك أسقط الإسلام نظريتين باطلتين : الأولى : الادعاء بأن الناس كانوا وثنيين فى الأصل ثم عرفوا التوحيد ، والأخرى أن الدين ينتشر بالظروف المادية ، أو العوامل الاقتصادية .

والخلاف فى الفرعيات أمر ضرورى لابد منه ، فأصول الإسلام من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية تختلف فى فهمها وتصورها العقول والأفهام ، وليس هذا الاختلاف عيبا ، إنما العيب فى التعصب للرأى الزائف إذا ظهر الحق ، أو الحجر على عقول الناس وآرائهم حتى لا ترى الحقيقة واضحة .

وقد جمع الإسلام بين ما يظن أنه متناقض فى الفكر المادى ، أو الوثنى :

جمع بين الأرض والسماء فى نظام الكون ، وجمع بين الدنيا والآخرة فى نظام الدين وجمع بين الروح والجسد فى نظام الإنسان وجمع بين العبادة والعمل فى نظام الحياة وسلكها جميعها فى نظام موحد هو الطريق إلى الله .

تتفق مختلف الثقافات والأمم على أسماء القيم الإنسانية ، ولكنها تختلف فى تفسيرها ؛ فالحرية والعدل والأخلاق والمعرفة والسلام والحرب ، كل هذه المفاهيم جد لها فى كل فكر وأمة ومذهب ، مفهوما متميزا . أما الإسلام فإنه يقرر فى ذلك أصفى وجهة نظر ، وأصدق رأى ، مستمدا ذلك من الفطرة الإنسانية الصافية ، وتكامل النظرة الجامعة ، وبذلك بنى الإسلام منهجا مستقلا له طابعه الربانى المستمد من الوحى والنبوة ، والقائم على أساس الإخاء الإنسانى والمسئولية الفردية ، والجزاء الأخروى ، بعيدا عن الإكراه فى الذين ، أو العنصرية ، أو الوثنية ، أو المادية ، أو الإباحية ، فأنشأ بذلك الأمة المختارة بالإيمان والتوحيد .

وإن أبرز مظاهر أصالة الإسلام إنما تتمثل فى أنه يرفض كل عنصر غريب عليه ، ومن هنا تخطىء النظرية التى تقول بتطوير الدين ، ولا تنطبق على الإسلام أساسا ، فالإسلام له ذاتيته الخاصة القائمة على دعائم من الثبات لها ما يكفل استمرار العطاء والرقابة والتوجيه ، مع السماح بالحركة من داخل الإطار العام الواسع المرن ، وسماحة التغيير فى الفروع ، فهى قادرة على الامتصاص ولكنها ليست أهلا للاحتواء ، ومازال الفكر الإسلامى الأصيل يقاوم دون أن يستسلم ، وهو آخر الحصون الصامدة فى وجه الغزو .

الإِسلامُ وَالْجِنسُ

نظر الإسلام إلى الجنس نظرة مستمدة من الفطرة ، وحرره من تعقيدات الرهبنة والرياضيات القاسية ، وأعلن أن الرغبات من طبيعة الإنسان التى لا سبيل إلى الوقوف فى وجهها ، ولكنه حررها من الإسراف والإفساد ، ووضع لها ضوابط من الحلال والاعتدال والعفة . ولذلك فقد عجزت أزمة الجنس أن تجد لها مجالا فى محيط الإسلام ؛ لأنها لم توجد أصلا ، وقد وجدت فى العقائد والفلسفات الأخرى التى وقفت أمامها موقف المعارضة والتحدى ، أو موقف الاستسلام والاطلاق بغير حدود ، وفى الغرب انتقلت الدعوة من القسر الشديد إلى الإطلاق الشديد ، أما الإسلام فإنه أعلن وجود الرغبات فى الإنسان من مال وطعام وجنس ولكنه وضعها فى إطارها الصحيح ، ولم يجعل الطعام قضية تفوق القضايا ، أو تسيطر عليها كما فعل ماركس ، ولم يجعل الجنس قضية القضايا كما فعل فرويد ، ولكنه جعل الحياة متكاملة فى عناصرها ، متوائمة فى رغباتها وحدودها بعيدا عن الزهادة والترف ، أو الرهبانية والتحلل، أو الاطلاق والكبت .

مفهوم الإسلام فى الرغبات يرتبط بالقدرة ويقوم على التسامى والإعلاء فى حالة عدم القدرة دون أن تفقد هذه الرغبات حقها المعترف بها فى حالة الاستطاعة ، وإلى جوار ذلك أقام الإسلام نظام الطهارة الجسدية والنفسية ، وأباح المصادر الشريفة فى المال والطعام والجنس ، كما أباح ظروف الاضطرار وعفا عنها .

الإسلام والعلم :

فرق الإسلام بين العلم النافع ، والعلم الزائد عن الحاجة .

ودعا المسلمين إلى أن يأخذوا من كل علم بما هو أحسنه، ودعا المسلمين إلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم ، والعلم كثير كما قال الرسول : « فخذوا من كل شيء أحسنه » ، فى إطار الجهاد ورفض التقليد ، والبحث عن البرهان وتقديم الدليل ، وتغيير الرأى دون جرح متى يتعين أن غيره أصح منه .

وأبرز مفاهيم الأساس فى هذا : الوضوح الصادق حيث لا تأويل ولا كناية ولا غمغمة ، وحيث لا يحمل اللفظ أكثر مما يطيق ، أو يؤدى أكثر من معنى ، وحيث الحق حق ، والباطل باطل ، وحيث أن الأمر إما أن يكون حقا ، وإما أن

يكون باطلا ولا وسط ، ولا يكون الشيء فى وقت واحد حقا وباطلا ولقد هاجم الإسلام الخرافات والسحر والكهانة ، وأنكر العرافين والعرافة ، وطارد الأوهام والمعتقدات الباطلة ، وأنكر ادعاء علم الغيب واعتبر السحر كفرا ، وحرص على أن يرتفع المسلم بإيمانه عن الضعف البشرى الذى جعله ألعوبة فى يد أوهام المنجمين ، وأضاليل العرافين .

كما حرر الإسلام أهله من دوامة البحث وراء الطبيعة ، أو عالم الغيب فقدم له منهجا متكاملا ، وذلك حتى يفرغ الإنسان لمهمته فى بناء الحياة وتعميرها ، وتحقيق العدل والإخاء الإنسانى ، والعالم فى مفهوم الإسلام ليس قديما ولكنه حادث ، وليس سرمديا ولكنه ينتهى بأجل مسمى ، خلقه إله قادر مستقل عن العالم .

وإن نواميس الكون هى من وضع الله سبحانه وتعالى ، وإنه هو وحده الذى يستطيع أن يخرق هذه النواميس ، وهو المحيط بالعوامل التى تخفى على البشر فى تقدير الأمور .

إن هناك خلافا واضحا بين المفاهيم الإنسانية والعلوم التجريبية :

ومن أجل ذلك فإنهما لا يمكن أن يخضعا لمنهج واحد فى المعرفة ، أو التفسير ، هذا الاختلاف يرجع إلى المفاهيم التى ترتبط بالإنسان من حيث مشاعره وعواطفه وهى أمور يصعب إخضاعها للقوانين التى أخضعت لها الظواهر الطبيعية ، هذا فضلا عن أن التجربة التى تلعب دورا رئيسيا فى كشف القوانين الطبيعية يتعذر تطبيقها فى مجال المفاهيم الإنسانية ، بحيث لا يمكن إقامة منهج البحث على أساسها .

وإذا كانت القوانين الطبيعية تصدق فى كثير من أحوال المادة فإنها لا تستطيع أن تحقق شيئا ما بالنسبة للمفاهيم الإنسانية وخلجات النفوس ، وعواطف الإنسان التى هى غير خاضعة للتجريب ، والتى تحكمها عوامل عديدة من العسير حصرها ، أو السيطرة عليها .

وإذا كانت العلوم التجريبية محددة بالمقاييس والموازين المضبوطة فإنه من العسير أن تتحرر المفاهيم الإنسانية من الأهواء والميول والمصالح .

فالبحث فيما يتصل بالإنسان إنما يتصل بعقائد وثقافات وتقاليد من شأنها أن تحول دون التقديرات العلمية الصحيحة ، ومن هنا يتبين أن المفاهيم الإنسانية لا يمكن إخضاعها لمثل ما تخضع له القوانين الطبيعية .

الفكر الإسلامى والفلسفات الغربية :

حاولت بعض الفلسفات الغربية أن تقول بأن الدين مرحلة فى حياة الأمم ، وأن الأمم قد تجاوزت هذه المرحلة ، وأن الدور الذى احتاجت فيه البشرية إلى الدين قد انتهى ، وأن البشرية أصبحت راشدة بالعلم وليست فى حاجة إلى وصاية الدين ، ومن الحق أن نقول : إن هذا القول لا يمثل الحقيقة ، فإن أمرا ما لم يجد على البشرية يعطيها رشدها حتى يمكن أن تتحرر من الدين ، فإذا قبل العلم والتكنولوجيا فإنهما لم يعطيا النفس الإنسانية شيئا لا من اليقين ، ولا من الإيمان ، ولا من السعادة المرتجاة ، وإنما أعطياها القلق ؛ لأنها حين تقدمت فى هذا المجال تجمدت وتحجرت فى المجال الآخر : المجال النفسى والروحى والمعنوى ، وآية التقدم أن يكون جامعا شاملا ، وإذا كان الغربيون يرون أن دينهم لا يعطيهم ، فإن الأمر يختلف بالنسبة للمسلمين ، فمازال الدين عنصرا أصيلا فى حياتهم ، ومازال معطيا للنفس البشرية والعقل الإنسانى على النحو الذى يكذب بكل دليل مرحلية الدين ، والواقع أن الدين فطرة من فطر النفس البشرية ، فهو جزء من التكوين البشرى ، وأن صلته بالإنسان والحياة صلة جذرية ، فهو ليس مرحلة ، ولكنه استمرار ممتد فى كيان الإنسان : عقله وروحه وحياته ، لا سبيل إلى الانفصال عنه أو انتزاعه ، ولذلك فإن الدين لم يمت ولن يموت ، وإن الفكر الغربى حين يدعى أنه تجاوز الدين – بمعناه الحق – فإنه قد تجاوز به اليقين والسكينة ودخل فى أشد أزماته وأخطره .

إن منهج البحث لأى فكر – أو ما يطلقون عليه (الأرجانون) – إنما يستند إلى خصائص اللغة ، ولكل لغة منهاجها الفكرى القائم على معانيها ومضامينها ، ومن العسير أن يقوم منهج البحث فى فكر أمة على غير خصائصها اللغوية ، ولذلك فقد هاجم المسلمون المنهج الأرسطى حيث إنه مستند إلى خصائص اللغة اليونانية ، ومن هنا يبدو عجزه عن الأداء فى مجال لغة أخرى لها

خصائها : هى اللغة العربية ، وكذلك الأمر بالنسبة للنهج الغربى الوافد ، المتصل بخصائص اللغات الانجليزية والفرنسية فإنه يواجه نفس العجز فى مجال اللغة العربية ؛ ذلك أن الفكر الإسلامى له منهج البحث الخاص به المستمد من اللغة العربية التى نزل بها القرآن .

ولقد أشار الإمام الشافعى إلى هذا الخطر حين قال : ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطو .

فعلى المثقفين العرب أن يفكروا بلغتهم وأن يتحركوا من داخلهم ، وأن يتجاوزوا تلك الحواجز التى تفرض عليهم أن يظلوا فى دائرة الفكر الغربى الذى يقاسى اليوم أشد أزماته ، ويصارع أقسى تحدياته ، ذلك أن محاولة فرض المنهج الغربى الوافد اليوم على المسلمين بهذه التجاوزات العميقة ، والاختلافات الواسعة التى تفصل بينه وبين المنهج الإسلامى ، هى محاولة لتدمير عقلية الشعوب الإسلامية ، وأسلوب تفكيرها ، ونظرتها إلى الأشياء ، ووضعها فى دائرة الغرب لتفقد ميزتها الأصيلة و الأساسية وطابعها الذاتى فتصبح تابعة تدور فى ذلك الفلك المنهار .

لَا إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّين

أبرز معالم الإسلام التكامل : بين العقيدة والشريعة والأخلاق ، وتقوم دعوته على الإقناع دون الإلزام – فلا إكراه فى الدين ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء أن لا يؤمن فهو صاحب الإرادة فيما اختار لنفسه ، وفى نفس الوقت لا يحمل الإسلام الإنسان تبعة ليست من صنعه ، فلا تزر وازرة وزر أخرى ، فليس الإنسان مسئولا عن خطيئة أحد ، وليس هناك خطيئة ما لأحد من خلق الله يمكن أن تنسحب على الناس جميعا أو البشرية كلها ، بل ناط الإسلام بكل إنسان تبعة أعماله وتصرفاته ، وأقام حرية الاختيار ، وقرر أن الأصل فى الإنسان الخير على خلاف ما تقول بعض العقائد ، من أن الإنسان خلق خاطئا ، أو كان فى أول أمره دنسا ، أما القرآن فيقرر أن الإنسان خلق طاهرا ، وخلق تاما ، وليس فى الإسلام خطيئة موروثة لها نفوذها على الإنسان قبل ولادته ، وخلال حياته وتحتاج إلى التوبة أو الكفارة .

يقول جوستاف جروبتاوم : إن الإنسان الإسلامى على خلاف غيره ، لا ينوء تحت وطأة الخطيئة الأصلية التى تحكم عليه وعلى نفسه بالسوء والفساد .

ولايقر الإسلام استقلالية الأخلاق عن دائرة الدين ويلزمها بالحركة داخل إطاره ، كذلك لا يقر نسبية الأخلاق ، ويرى أن القيم الأساسية ثابتة ثبوت الكيان الإنسانى نفسه الذى يجمع بين الروح والمادة والقلب والعقل .

المسئولية والجزاء فى الإسلام :

قرر الإسلام المسئولية الفردية مع حرية الإرادة للإنسان ، وقرر فى مقابلها الجزاء الأخروى عن العمل : فالدنيا دار تجربة والإنسان له رسالة وعليه مسئولية ، والآخرة دار جزاء . ولابد لذلك من بعث بعد الموت .

وليس فهم الحياة بوصفها معبرا إلى الآخرة مما ينقص من هدف بنائها ، والسعى فيها وتحسينها ، وذلك أن المسلم مطالب أن يعيش فى الحياة معيشة العزة والكرامة ، وأن يكون قادرا على تبليغ كلمة الله إلى العالمين ، ولا ريب أن الإنسان بمسئوليته ورسالته والتزامه أشد قوة على مواجهة الحياة وقدرة على العمل بها من الذين لا يرون للحياة هدفا ، والذين يرونها صدفة ، وهم الذين تتخطم نفسياتهم تحت تأثير التمزق والقلق والعبث واللامعقول .

ولقد دعا الإسلام إلى العمل والاقتحام ، ثم الرضا بقضاء الله فى النتائج ، فالإنسان يحمل تبعة عمله ويطلب العون من الله ، فإذا أخطأ كان عليه أثر خطئه ، وعليه أن يعاود النظر فى الوسائل ، ويعاود الكرة ، ولا ييأس ؛ فالمؤمن لا ييئس من روح الله .

رَسُولُ الْإسْلَام الْمَثَلُ الكَامِلُ

الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - كان ولا يزال وسيظل النموذج الأسمى والمثل الكامل ، فى تصرفاته وشمائله وأعماله ، الذى يقتدى به المسلمون ، فهو الأسوة الحسنة ، وهو الرسول الإنسان الجامع بين عطاء الوحى وقدرة البشر ، وسيظل عمله وخلقه وتصرفه مثلا قائما وقدوة دائمة عبر العصور أمام جميع المجاهدين والمصلحين ، وملهما للأبطال والقادة . ولقد كان حب المسلمين - ولا يزال - لرسولهم حبا عمليا ؛ لأنه ارتبط بالقدوة والمتابعة من ناحية ، والإيمان بالله سبحانه وتعالى صاحب الأمر كله أساسا ، والمسلمون يفرقون تماما بين قدرة الله المطلقة العالية والإيمان به وحده ، والتماس القصد منه ، وبين النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى هو النموذج الأعلى للبشرية ، ولذلك فقد واجه المسلمون اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم للرفيق الأعلى بيقين كامل وفهم واضح أنه بشر يجرى عليه ما يجرى على البشر ، وتعمل أحكام الإسلام على إدامة وضوح الفهم والتفرقة بين الألوهية والنبوة ، واجتماع الوحى والبشرية للنبى والرسول ، فهو وحده المعصوم ، أما البشر فإنهم بعد ذلك ليسوا إلا بشرا وليست لهم خصائص النبوة ،أو الألوهية قطعا ، **وإن أبرز ما فى الإسلام وضوح سيرة النبى وضوحا كاملا ، فالمسلمون يعرفون دقائق حياته ، ووقائع أعماله ، ونصوص كلماته ، على نحو كامل ، وقد وثقت هذه النصوص على مدى الأزمان بحيث لا يدخلها الشك ،أو الريب ، ومن ثم فإنهم يجمعون إلى النص الموثق المنزل وهو القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، يجمعون إليه السنة المطهرة ، والسيرة الكريمة نبراسا تطبيقيا للقرآن ، تمثله فى ذلك النموذج الكامل للبشر : محمد صلى الله عليه وسلم .**

الإسلام يعالج النفوس الحائرة :

إن أزمة البشرية اليوم هى أزمة الأنفس الإنسانية الحائرة التى ظنت أن معطيات المادة تستطيع أن تقدم لها الطمأنينة والسعادة والنعماء . ذلك لأن المفهوم البشرى المسيطر فى عالم الفكر والحياة هو مفهوم جزئى انشطارى مادى يحكم الأشياء كلها بروح المادة ويرى أن يفصل فيها ، ومن ثم تقلصت مسائل النفس والروح والمعنويات والدين ، وهنا نشأت تلك الحيرة الهائلة التى تجتاح النفوس بالتمزق والتحلل والضياع ، ذلك أن مفهوم التقدم العلمى قد حاول أن يحجب

الإنسان عن يد الله القادرة وراء كل القوى والأمور ، ظنا بأن قوانين المادة التى اهتدى اليها الإنسان هى وحدها التى تحرك الأمور ، كذلك فقد ظن الإنسان أن السعى والعمل وحده كفيل بأن يحقق الرغائب ولكن السعى ينجح ويفشل ، وقد ظن الإنسان أن الحياة هى غنيمة باردة سهلة ، عليه أن يغتنمها قبل أن تنتهى؛ لأنه لا يؤمن بما وراءها ، كذلك فهو قد آمن بالجبرية ورفض الإرادة ذات المسئولية والجزاء وفى كل ذلك خرج الإنسان عن فطرته وأغضى عن عطاء الدين الذى هو الضوء الوحيد الكاشف الصادق فى هدايته إلى الطريق وفى سبيل تحريره عن أهوائه ومطامعه ، ومن هنا جاءت تلك الأزمة التى ليس لها علاج إلا بالعودة إلى الإيمان بالله : قوة دافعة تعطى الأمل ، وتحول دون اليأس ، وتبعث الثقة ، وتدعو إلى المعاودة فى حالة الإخفاق وتهدى إلى الوجهة الصحيحة للإنسان والعمل الذى استخلف من أجله . وقد تبين أنه لا سبيل إلى تفريغ كيان الإنسان من مضمونه الاجتماعى والنفسى والروحى ، أو النظر إليه على أنه ذلك الهيكل البشرى خاليا من الروح والوجدان .

لا رهبانية فى الإسلام :

ألغى الإسلام الفكرة القديمة التى كانت تقول : إن هناك صراعا بين الجسم والروح ، وأعلن أن الروح والجسم متكاملان ، وبذلك أسقط مفهوم اللارهبانية القائمة على الرياضة العنيفة وتدمير الجسد من أجل الصفاء الروحى ، كما أسقط مفهوم الاندفاع المسرف إلى الشهوات والملذات ، آمن الإسلام بالروح والجسم معا ، ونظر إلى الإنسان نظرة متكاملة ، وكرمهما معا ، ودعا إلى الاهتمام بالجسم من ناحية النظافة ، وجعل الطهارة دليل الإيمان ، ودعا إلى طهارة القلب لا الجوارح فحسب ، وجمع بين النظافة والطهارة والزينة ، وربط بين الدنيا والآخرة .

ومن هنا فقد قضى الإسلام على فكرة أن الجنس هو غاية الحياة ، أو أكبر أهدافها فقد جعل الرابطة الاجتماعية فى الأسرة هى أقوى الركائز لبناء المجتمع ولسعادة الرجل والمرأة جميعا ، كما قضى فى نفس الوقت على فكرة الجنوح عن الزواج ، وبناء الأسرة ، وعده نقصا فى التكوين البشرى .

وفى نفس الوقت الذى اعترف الإسلام فيه بالرغائب البشرية حرر الإنسان من طابع عبادة الشهوة أو عبادة الأجساد ، أو عبادة الفرد ، أو عبادة ما سوى الله الواحد الأحد .

كذلك دعا الإسلام إلى تهذيب مداخل الشهوات ، ومخارجها فوقف بها عند الحد الذى لا يؤذى الفرد ، ولا المجتمع والذى لا يحول دون تدمير الشخصية الإنسانية .

الإسلام يأمر بالعدل والإحسان :

دعا الإسلام إلى الإنصاف من النفس وإقرار الحق بالنسبة للقريب والبعيد فى آن ، وللعدو والصديق فى آن ، وجعل من شرعته أن يتساوى أمام العدل والحق : الأمير والأجير ، وهو فى هذا يصحح خطأ الأمم والحضارات التى تنصف أهلها ولا تنصف الغير ، وقد عبر رسول الله عن هذا فى أبلغ بيان حين قال :«إنما أهلك من كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد» وكشف النبى عن موقف الإسلام فى أن الرسول يقيم الحد على أقرب الناس إليه « وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

كذلك دعا الإسلام إلى المطابقة بين الكلمة والسلوك ، والإيمان والعمل ، وربط بين العقيدة والعمل ، فاتصل ذكر الإيمان والعمل الصالح فى القرآن خمسين مرة ، ولقد كان من أخطر الأخطار على المجتمعات – ولايزال – انفصال العلم عن العمل ، وإلقاء المفاهيم نصوصا لا تطبق فى المجتمعات ولا تمارس بين الناس ، ذلك أن الإسلام إنما يريد من المفاهيم الصالحة ، والأفكار النافعة أن تكون أداة بناء حياة كاملة فى إطارها ، وضمن مضمونها .

نظرة الإسلام إلى المال :

قرر الإسلام أن المال وسيلة لا غاية ، وطريق لا هدف ، وأن المال كله هو ملك الله تعالى ، وأن الإنسان مستخلف فيه ، استخلفه الله للانتفاع به وتوجيهه فى سبيل الله ومصلحة المجتمع ، وقد كرم الإسلام العمل والإنفاق ، والمال تطهره الصدقة ، والزكاة ركن ، وهو نظام للتضامن الاجتماعى ، وقد دعا الإسلام إلى تداول

المال بين الناس جميعا دون قصره على طائفة خاصة ، وقيد حق الإنفاق بمنع السرف والتقتير ، وقيد تنمية الثروة بمنع الغش والربا والقمار والاحتكار ، وجعل الدولة ضامنة من لا مال عنده ولا عمل فهى تتولى إيواء العجزة ، وذوى العاهات ، وأنكر الإسلام احتكار الثروة فى طبقة واحدة ، وأنكر احتكار التجارة ، وحرم أكل أموال الناس بالباطل .

ودعا الإسلام دعوة صريحة ملحة إلى الإنفاق وهاجم البخل كذلك فرق تفرقة واضحة بين البيع والربا فأحل البيع وحرم الربا .

أساس المعرفة فى الإسلام :

قرر الإسلام أن للمعرفة جناحين : روحا وعقلا ، وحيا ونقلا ، والوحى أساس ، والعقل فى حدود مهمته وقدرته خادم للوحى ، وقد دعا الإسلام إلى المطالبة بالبرهان والدليل ، ونهى عن تحكيم الهوى ، أو العصبية فى الكشف عن الحقيقة كذلك فتح الإسلام باب الاجتهاد فى فهم الحقائق ، والنظر فى الفروع .

وقرر القرآن دستور العلم ، فدعا إلى عدم الانخداع بالأوهام والاغترار بالظنون ، والقول بغير دليل ، وإعمال العقول ، لا يقلدون أحدا ، احرار فى النظر لا يبعدهم عن ذلك شىء **وقرر الإسلام ألا كتمان للعلم ، بل دعوة إلى إذاعته وبثه فى الناس وعقاب من يكتمه** ، وجعل السلطان للحجة والبرهان ، ودعا إلى التحرر من التبعية والتقليد ، وأقر الإسلام نظام الثوابت والمتغيرات : فهناك الثوابت التى لا تتغير وهى الأصول التى تقوم عليها حركة المتغيرات .

وأقر الإسلام للمجتمعات قواميس ثابتة، وكشف عن أن للوجود الإنسانى سننا لا تتغير هى سنن الله فى الكون ، وهى التى تحكم الأمم والحضارات والمدنيات والمجتمعات ، وقد ورد هذا فى القرآن قبل أربعة عشر قرنا .

وأقر الإسلام مفهوم التقدم على أنه تقدم جامع : مادى ومعنوى معا وليس تقدما ماديا خالصا ، والإسلام لا يعارض التقدم بل يدفع إليه ، وكذلك النجاح المادى فهو ليس غاية فى ذاته بل مرتبط بالتبعية الأدبية ، ولقد جعل الإسلام الغاية من مختلف أنواع النجاح أن يكون خلقيا .

الإِسْلَامُ دينُ تَرَابُطٍ وَمُساوَاة

أقام الإسلام أصول الأخوة العالمية وجعل روحها الترابط والمساواة ، وبذلك هدم العبودية ، واستعلاء الطبقة الخاصة ، وألغى الرق والسخرة ، وحرر العبيد ، وأدخلهم فى نطاق الاخاء : لهم مالهم وعليهم ما عليهم .

والإسلام لا يقر أى فروق فى الجماعة على أساس اللون ، أو الجنس ، أو اللغة ، وقد سوى بين الأجناس ، فلا يرى لأبيض على أسود ، ولا لعربى على عجمى من فضل إلا بالتقوى ، وبذلك مهد للوحدة العالمية الحاملة لمختلف العناصر والأقوام ، على أساس التوحيد بصرف النظر عن فوارق اللون ، أو الدين ، أو اللغة . ويرفض الإسلام القول بأن هناك جماعة معينة بينها وبين الله عقد خاص ؛ لتكون مسودة على العالم ، ويقرر أن عقد الله الوحيد مع البشرية هو التقوى ، وبذلك شجب الدعوة العنصرية القائمة على الدم والأنساب ومنع التفاضل بهما ، ولم يجعل الأنساب والدماء ميزانا لتقدير الناس ، بل جعل الناس جميعا متكافئين فى أموالهم ودمائهم .

وقد قرر الإسلام هذه الأخوة البشرية منذ أربعة عشر قرنا وهو المبدأ الذى لم يعرف عند الروم ولا الأوربيين أو الأمريكيين المعاصرين – على حد قول برناردشو ، فإذا سألت العربى أو الهندى ، أو الفارسى ، أو الأفغانى من أنت ؟ : يجيبك : أنا مسلم ، أما الغربى فإذا سألته من أنت ؟ قال : أنا انجليزى ، أو طليانى ، أو فرنسى . فالغرب يترك الدين ويتمسك بالجنسية ، أو الوطنية . ويقول المسلم : أنا مسلم بصرف النظر عن جنسيته ، أو وطنه . وهذا أكبر دليل على أن الإسلام يوحد بين أهل العقيدة المشتركة .

تحرر الفكر والتدين

فى الإسلام يلتقى الدين بالعلم ، والإسلام هو الذى دفع المسلمين إلى الخروج من دائرة المنهج اليونانى القياسى إلى إنشاء المنهج التجريبى ، فقد دعا الإسلام إلى النظر فى الكون ، والتأمل فى الكائنات ، ومعرفة أسرار الوجود .

كذلك فقد جعل الإسلام طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ودعا الأمة أن ترتب أقواما لتعليم الناس ، وحث على العناية بتنمية العقل الإنسانى ، كذلك فضل العلم على العبادة ، وفضل العلم على إطلاقه : علم الدنيا وعلم الدين ومن هنا كشف عن حقيقة هامة : هى أنه لا تعارض بين تحرر الفكر وبين أن يكون المفكر متدينا .

وقد وصل المسلمون إلى أعلى درجات العلم والثقافة ، ومع ذلك فقد ظل مجرى عقولهم قائما على الإيمان بالله ، والعلم فى الإسلام يزكو بالإنفاق ، وقد أخذ الله الميثاق على العلماء أن يبينوه للناس ولا يكتموه . وقد أطلق الإسلام حرية البحث ، وحث على الاجتهاد ، وقرر أن للمخطىء أجرين إذا أصاب ، وأجرا إذا أخطأ ، وحرم التقليد ، ودعا إلى عدم الانخداع بالأوهام ، أو قبول الظن ، أو القول بغير دليل ، ودعا إلى استعمال العقل وسؤال أهل الذكر .

وقد اعترف الإسلام بقانون الترق ، وطالب بترقية الشخصية الإنسانية وتحريرها من الوثنية ، والتبعية ، والجهل ، والخرافة .

لا تناقض فى الإسلام :

ليس فى الإسلام تناقض بين المثل الأعلى ، والواقع العملى للناس ، وليس فيه ما يصادم العقل ، أو الذوق ، أو الفطرة ، أو العلم . ومن هنا فالإسلام يقر الفلسفات المعقدة ، ولا يقر الإشراق ، أو التناسخ ، أو الحلول ، أو الالحاد ، وليس فيه من يسقط عنه التكليف .

وبذلك أقام الإسلام الفطرة ودعا إلى بقائها وشدد بالنهى عن إفسادها بالتعاليم الضارة ، ونبه إلى ضرر التقليد الأعمى للآباء والقادة .

كذلك دعا إلى حفظ الدنيا ، وتنميتها فى إطار التقوى ، وتوجيهها إلى الله ، وجعل أقوى صور الزهد هو التضحية بالنفس فى سبيل الجماعة ، ودعا

الإسلام جميع أبنائه إلى الاندماج فى المجتمع وقهرهم قهرا على الأخذ من منافع الدنيا بنصيب ، وجعل كل إيقاف للحياة عن الحركة بالنسك والزهادة مخالفة صريحة لمفهومه وابتعاد عن الحياة العملية . وبالرغم من هذا يدعو الإسلام الإنسان إلى الزهد فى وسط مغريات الحياة ، وليس بالعزلة عنها . والعالم فى نظر الإسلام ليس سرمديا ، ولا أزليا ولكنه حادث ولكل شىء فيه أجل مقرر ، ونهاية محتومة .

وأكد الإسلام قيام الصلة بين الإنسان وخالقه دون وساطة أحد من الناس وكشف عن أنه ليس فيه سر ولا تناقض ولا أمر يعرفه أحد من الناس دون المسلمين جميعا ، وليس فى الإسلام رجل دين له حق يزيد عن حق الإنسان العادى ولا هو مخول حق السيطرة على الناس .

مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ فَقَدْ عَرَفَ نَفْسَهُ

إن كلمة « اعرف نفسك » وعليها يقوم الفكر الغربى الوثنى كله كلمة مضللة ، والمسلمون يقولون: اعرف ربك تعرف نفسك ، ومن عرف ربه عز ومن عرف نفسه ذل ، وهم حين يواجهون أزمات النفوس لا يضعون لها العلاج ، ولا يكشفون عن أسباب المرض ، ولكن الإسلام يلقى الأضواء صادقة ويقول كلمة البرء والشفاء . إنهم يثيرون الشبهات ، ويحرجون الصدر ، ويمتنعون عن إلقاء الضوء الكاشف على الطريق الصحيح ، إنهم يريدون أن يعلنوا أن ذلك من طبائع الأمور ، وهو غير صحيح ؛ **فالفطرة سكينة وطمأنينة ، والخروج عنها قلق وتمزق** ، وما وقع هذا التمزق فى البشرية إلا نتيجة خروجها عن الفطرة ، إنهم يعالجون رغبات النفس بمزيد من الرغبات ، وانفتاح النفس على اللذات يجعلها لا ترتوى أبدا ، بل ينهكها ويدمرها ، إنهم يعالجون الحرمان بخلق هذا العالم الوهمى من الغناء والمسرح ، وما يشفى هذا ، ولكنه كالمخدر يصل بالنفس بعد أن تضيق إلى أقسى صور الأزمة .

إن النفس البشرية لها علاجها ليس بإطلاقها بل بضبطها ، وليس بالمثيرات بل بالمبررات ، ولابد من ارتفاع صوت العقل على نداء الجسد ، وإعلاء الخلق على الابتذال ، وتطويع الهوى للهدى ، وإخضاع المزاج للفكر ، إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله : ألا وهى القلب .

والمسئولية والحرية متلازمان فى الإسلام : فالحرية تنمو وتتسع باتساع العقل وحسن استثماره ، وكذلك المسئولية تنمو وتكبر بازدياد الحرية ، والإسلام يحرر الإنسان من عبوديته لأية قوة مهما كانت بشرية ، أو غير بشرية .

مُقَوِّمَاتُنَا مِنْ نَبْعِ دِينِنَا

هناك أمور ليست أممية ، ولا مشتركة بين الأمم البشرية جميعا ، فهى مطبوعة فى كل أمة بطابعها الخاص ، تلك هى الأخلاق والعادات والتقاليد والآداب والذوق والروح والمزاج .

إن هذه الأمور هى مقومات كل أمة ومنبع إلهامها ، وهى ترجع إلى عوامل كثيرة أبرزها عامل الدين والعقيدة ، بالإضافة إلى عامل البيئة والتاريخ والعنصر ، ولا ريب أن الفوارق بين الأمم من ناحية الأخلاق والاجتماع والعقائد واللغة ، قوية عميقة الجذور إلى درجة تجعل من المستحيل تذويبها أو احتواءها من جانب القوى المسيطرة ، أو الغازية .

وذلك هو ما يطلق عليه الطابع الخاص : فقد نقل الغرب علومنا دون أن يعتنق ديننا ، أو يقبل ثقافتنا ؛ ذلك لأن هذه مما يدخل فى خصائص الأمم ، وطوابعها الخاصة ، أما العلم والمعرفة فتلك أمور عامة ملك للأمم جميعا ، ولقد كان من دأب التغريب ، والغزو الثقافى إخراج المسلمين والعرب من مقومات دينهم وفكرهم فى محاولة لإذابتهم فى بوتقة فكره العالمى ، وتعويض مجتمعهم فى مصادره الأساسية وهزيمة العقل الإسلامى من خلال منطلقاته الأصلية . هذه المنطلقات هى رأس مال المسلمين وميراثهم وأداة قوتهم ، وهى التى حفظت وجودهم هذا المدى الطويل وحققت لهم النصر فى كل موقف ، ومكنت لهم فى الأرض ومنحتهم المهابة والمكانة فى نظر الأمم ، فمن العسير أن يتخلوا عنها ، أو يفرطوا فيها .

لا بديل للتشريع الإسلامى :

حملت موجة الزحف الاستعمارى التى طوقت العالم الإسلامى معها ، تلك المحاولات التى فرضت نظما وافدة للاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية والقانون تختلف عن طبائع هذه الأمم وقيمتها . ولقد عجزت هذه المحاولات أن تستوعب النفس المسلمة ، أو تجد لديها القبول ، وكشفت التجارب المتعددة حاجة المسلمين إلى إعادة النظر فى تلك المناهج الوافدة . وقد حملت هذه الرياح معها القانون الوضعى الذى جرى تطبيقه بديلا للشريعة الإسلامية ثم ظهر من عيوبه ونواقصه ما كان بعيد المدى فى اضطراب الحياة الاجتماعية ، وهو ما دعا إلى إعادة التماس مصادر

التشريع الإسلامى ، كما حملت معها محاولات إسقاط القيم والفرائض التى كان لإسقاطها أثرها فى العجز عن مواجهة أخطار الغزو الخارجى ، وجرت المحاولات لتحريف التاريخ ، والنصوص الأساسية على نحو استهدف افساح الطريق لإقرار مفاهيم زائفة ، حاولت الصهيونية إقرارها مثل التشكيك فى رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز بل ووجود إسماعيل ، وبناء الكعبة بيت الله الحرام ، وجرت المحاولات لإضافة أشياء ليست أصيلة مثل الاسرائيليات ، وإدخال التأويل فى التفسير بما يبرر الواقع ، أو يؤيد مذهبا ما ، وكل هذا مما لا يقره الإسلام الصحيح وما يزال تحرك المسلمين جاريا فى نطاق القرآن فإذا خرجوا عنه واجهوا الحرج والأزمة والتمزق ، وواجهوا ضربات الأمم وذلة فى الحياة الدنيا ، ولن يرفع الحرج إلا بالتماس منطق القرآن ، وتطبيق الشريعة ، إن الطريقة الوحيدة التى اختارها الإسلام للمسلمين للتحرر من الأزمات أن يعودوا إلى المصدر الأصيل للعقيدة ، وأن يحكموا فى ضوئه على كل ما فى حياتهم من أوضاع .

رَسُولُ الإسْلامُ هُو الْقُدْوَة

عاش المسلمون تاريخهم كله فى نضال مستمر من أجل شيء واحد هو أن لا يخضعوا لانحراف الأهواء المضلة ، ولا النحل التى تخلب الألباب بعباراتها البراقة وتخفى السم فى الدسم ، ومن نتيجة ذلك كانت الأمانة المحفوظة المنقولة على مدى الأيام : هى أن نعرض كل ما يقدم لنا على كتاب الله فهو المصدر الأول لفكرنا ، فلا نقبل إلا ما كان مطابقا له ، ولا نثق بكل ما يكتب ، ولا كل ما يقال مهما كان له بريق من شهرة قلم كاتب أو أناقة طبع كتاب .

ولقد تواصى المسلمون بأن مذهبهم هو المذهب الجامع القائم على ألسنة ، وليس هو مذهب الفلاسفة ، أو مذهب الباطنية ، أو مذهب المعتزلة ، أو الغلاة أو التصوف الفلسفى ، وذلك أن الإسلام فى مفهومه الجامع القائم على السنة قد جمع بين العقل الذى عرفه المعتزلة ، والقلب الذى عرفه الصوفية ، فإذا أردنا نموذجا تطبيقيا لهذا التكامل وجدنا هذا النموذج فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقرآن هو المنهاج والرسول هو التطبيق﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾أما بعده فالكل بشر نأخذ منهم ونترك ، ما وافقوا كتاب الله .

ولقد أدخل المسلمون حب رسول الله وآل بيته داخل فكرهم ، فأحبوا أهل البيت حبا صحيحا ولكنهم احتفظوا بمفهومهم الكامل للتوحيد والنبوة ، ولم يؤمنوا بالعصمة إلا لرسول الله وحده ، وقد بين رسول الله الإسلام فلم يختص أحدا بشيء ولم يكتم منه شيئا ولا سرا ، فليس لفئة ما من المسلمين ميزة خاصة ، وجعل الصلة بالعمل وليست بالنسب .

الإسلام دين عزة وسيادة :

إن من أخطر المعانى التى حاول التغريب والاستشراق والتبشير إسقاطها من النفس الإسلامية : هو أن الإسلام عقيدة ونظام وتربية ومنهج حياة ، وأنه ربى أتباعه على العزة الكاملة ، وأنه لم يقبل الضيم يوما ، ولم يسمح لأهله الرضا بالذل ولا مساندة الخضوع ، ولا إعانة العبودية ، **فقد ربى الإسلام معتنقيه على الاعتزاز بكرامتهم** ، ورباهم على الإيمان بأنهم خلقوا ؛ ليفرضوا وجودهم فوق هذه البسيطة ، ولينتزعوا مكانهم تحت الشمس ؛ ليكونوا سادة ولا يكونوا عبيدا من غير من ولا ظلم ولا اعتساف ، **فليس الإسلام حليف ذلة ولا حليف طغيان** . ولقد كان الإسلام

ولا يزال مصدر حركة المقاومة ضد الاستعمار والغزو وكل نفوذ أجنبى وأنه هو الأداة الأصيلة الصحيحة لتحقيق النصر ، وقد تمكن المؤمنون به أن يتحرروا من رق الدول المستعمرة ذات العدة والعدد ، بينما لم يكن للمسلمين سند ولا مدد إلا إيمانهم بالله وعزتهم وثقتهم بوعد الله ، وعقيدتهم القائمة على التوحيد الخالص فلا يخافون إلا الله ولا يرهبون سواه ، ولقد نصرهم هذا الاعتقاد فى مواطن كثيرة ، وحررهم من الاستعمار والغزو ، وحق لهم اليوم أن يلتمسوه فى بناء مجتمعهم ودولتهم وأمتهم ، ذلك أنه إذا كان الإسلام إزاء الاستعمار عامل تحرير فإنه سيكون إزاء البناء الاجتماعى ، عامل تقدم .

الإسلام يدعو إلى الترابط ويمقت العصبيات :

ليس ثمة تناقض بين كيان الأمم وانتمائها الإسلامى وبين ترابطها العالمى باسم الفكر والدين والعقيدة . فالإسلام لم يعمل على محو القوميات بل اعترف بالشعوب والأمم ، ولكنه دعا إلى محو العصبيات . وقد جعل الإسلام الانتماء إلى الأمم والأجناس وسيلة لخدمة الإنسانية التى رسم الإسلام مثلها وأهدافها . ولقد ترك الإسلام لكل شعب لغته ، والكثير من عاداته وفنونه ولكنه وحد العقيدة ، أى أنه أقام مفهوما أصيلا فى النظرة إلى الله سبحانه ، والوجود والحياة ، ووحد طريقة العبادة والشريعة ونظم العلاقات بين الناس وأسلوب السلوك والأخلاق .

إن التفرقة بين الإسلام والعروبة هى محاولة معارضة لطبائع الأشياء ، ذلك أن العروبة تشكلت فى إطار الإسلام وصلتها به صلة جذرية وعضوية معا ، ولقد صهر الإسلام القوميات فى البوتقة الإسلامية وأحالها من تفارق العرق والعناصر إلى جوامع وحدة الفكر وتكامله .

ولقد كان الشعور بالعروبة مرتبطا بالرسالة الإنسانية ومفتوحا على الأمم التى اعتنقت الإسلام عطاء وأخذا ومحبة ورباطا ثقافيا وعقيديا عميق الجذور واسع المدى .

وليس الإسلام ملكا للعرب وحدهم ولا لأية أمة من الأمم وإنما هو رسالة الله إلى الإنسانية جميعا ، وقد اختير العرب لحمل لوائها وأعدهم الله لذلك إعدادا صحيحا ، فقاموا بدورهم ، ولا يزالون مؤهلين لتجديد هذا الدور .

ولقد خلق الإسلام العرب خلقا جديدا ، وانتقل بهم إلى المجال الدولى ، ولقد أقام الوحدة على أساس العقيدة والفكر ، وليس على أساس الجنس والعرق ، وكان الإسلام السور المنيع الذى رد عنهم العوادى وحطم الغزاة .

الإسْلامُ يَدْعُو إِلَى ٱلتَّقَدُّم

قرر الإسلام أن لكل فرد فى المجتمع الإسلامى ما يستحق من الاحترام والطاعة بقدر ما يتحمل من المسئولية ، وبقدر ما يتحلى به من صفات طيبة ، كالعقل والعلم والخلق ، ويعطى الإسلام أهمية كبرى للإنسان كفرد ، وكفرد فى مجتمع ، ويؤكد حاجته إلى التقدم المستمر ، ولذلك يحرر طاقاته الخلاقة كلها ، فكرية وخلقية وعملية ؛ لتنطلق فى خدمة تقدمه كانسان ، وفى خدمة المجتمع ككل ، دون السماح لعائق ما أن يقف فى وجهه ويعارض بصفة خارجية العائق الطبقى الذى يحكم على الإنسان باعتبار الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها ، ويجعل تقدمه مرتبطا بمواهبه وقدراته ومدى ما يمكن أن يقدم للمجتمع من خدمات ، ومن هنا فإن الإسلام لا يقر الامتياز الفردى كأساس لتقدير الناس وإنما يعرف مقياسا أعمق وأصفى وأصدق : هو التقوى .

كذلك لا يعرف الإسلام القداسة والعصمة للبشر ، وهم سواء فى التعرض للخطأ و الصواب، فالإسلام يضع الناس جميعا سواء أمام الاعتبار البشرى ، ويرفع العصمة عن الإنسان إلا فى نطاق ما يكلف به رسله لتبليغه من وحى الله إلى الناس ، ولا يعرف الإسلام استعلاء طبقة باسم رجال الدين ولا حكومة إلهية ولا يفصل الدين عن المجتمع أو الأخلاق عن العقيدة .

قدرات الإسلام :

امتاز الإسلام بقدرات واسعة فى آفاق عريضة : امتاز بالقدرة على معايشة الحضارات والمجتمعات والالتقاء بها ، كما امتاز بالقدرة على إجراء حركة التصحيح من داخله ورد الشبهات ومقاومة كل تحريف أو تحول فى المجرى الطبيعى ، كما امتاز بالقدرة على فتح آفاق جديدة من خلال الأزمات التى تواجهه ، كما أتاحت له طبيعته الجياشة المرنة إبراز رجال أقوياء مقتدرين على تجديد شبابه وبعث لمفاهيمه الأصيلة ، وإعادة صياغة فكره ، واستطاع دائما باقتدار تغيير الأوضاع الفاسدة ، ونقل الفكر إلى الحياة ، ومقاومة الحكم الجائر والترف ، ومجابهة المتصدرين بكلمة الحق وإنكار المنكر ، كما حث على الإنتاج والتوسع والانفتاح على الآفاق .

والنظرة المنصفة للإسلام هى النظرة المستمدة من أصوله ومقاصده ، لا من تاريخه وتطبيقه ، فالتاريخ ليس مصدرا لمنهج الإسلام ، وليس ما فى التاريخ الإسلامى ممثلا صحيحا لمفهوم الإسلام فى كل آن .

المغرضون وسماحة الإسلام :

إن أخطر المحاولات التى تحتاج إلى الانتباه الوافر ، هى محاولة وضع الإسلام فى موضع تبرير القيم الغربية باسم سماحة الإسلام ، وانفتاحه وقابليته للاجتهاد ومعايشة ظروف الأمم والحضارات .

وتجرى هذه المحاولات تحت اسم تطوير الإسلام ، أو تطوير الشريعة الإسلامية ، وبخاصة فى مسائل الربا والمرأة وحدود السرقة والزنا والخمر .

ولا ريب أن الاجتهاد ليس منفصلا عن الكتاب والسنة ، وأن هناك قواعد كلية لا يجوز الاجتهاد فيها ، وأصولا ثابتة فى المعاملات لا تتغير بتغير الزمان ، وبخاصة فى البيع والرهن والشفعة والهبة . وهناك مسائل فرعية يجوز فيها الاجتهاد .

وقد شاب الدراسات التى حاول أصحابها اتخاذ الإسلام أداة لتبرير تجاوزات الحضارة وانحرافاتها فساد كثير ، وبان فيها - عند محاولة الفكر الغربى القائم على شرائع وضعية - العجز عن فهم أصول الإسلام .

ومما يثار - وهو أحيانا ليس سليما - القول بأن الأساس فى المعاملات هو رعاية المصلحة العامة ، أو حاجات الناس ، وهذا الرأى مخالف لمفهوم التشريع الربانى القائم على حكمة عليا أكبر من أن تكون المصلحة وحدها هى الموجهة له ، والمفسرة لآياته .

يفرق الإسلام تفريقا واضحا بين الأخلاق والتقاليد ، هذا التفريق يغيب عن بال كثير من الباحثين . أما الأخلاق فهى القيم التى رسمها الإسلام ، وأقرتها الأديان أساسا ، والتى تتعرض للتحول والتغير بتغير الزمان ، تلك القيم الثابتة الراسخة التى أثبتت أجيال البشر جيلا بعد جيل أنها مرتبطة بالسنن الطبيعية للحياة

الإنسانية ومرتبطة بالإنسان من حيث تكوينه وحياته ، وهى ليست مرتبطة بالمجتمعات والعصور .

وقاعدة ثبات الأخلاق أن الحق واحد ، والخير واحد ، وأن كلا منهما لا يختلف ولا يتعدد ، وأساس الأخلاق هو التمييز بين الخير والشر ، والحق والباطل ، وسيظل كل منهما قائما على اختلاف الأزمنة والبيئات دون أن يتحول الخير إلى شر ، أو الحق إلى باطل مهما تعددت التفاسير والتأويلات .

هذا عن الأخلاق ، أما العادات والتقاليد فتلك سنن المجتمعات المرتبطة بالأزمنة ، والبيئات المتغيرة المتبدلة ، والتى يأخذ الناس منها ما يرونه صالحا ، ويردون منها ما يرونه زائفا .

ولقد كانت محاولة الاستعمار إعلاء شأن العادات والتقاليد ، وتمجيد العادات الموروثة ، والإدخال فى روع الناس أن لها قداسة من حيث تمثل تراث الأسلاف وبذلك عزلت مبادىء الإسلام وجمدتها ، وكان من خطر ذلك رفع شأن العادة إلى مقام القيم الدينية .

إن من أخطر الدعوات التى يثيرها التغريب اليوم : الدعوة إلى نبذ الماضى : التاريخ ، والتراث ، وذلك يعنى بعبارة مغلفة : معارضة قيم الإسلام والتحرر منها ، هذه الدعوة تتحدث عن المسلمات ، وعن الأساطير ، وعن الخرافات ، والإسلام براء من ذلك كله ، وربما كان ذلك صحيحا بالنسبة لأمم أخرى ، أما فكر الإسلام فقد ولد فى أحضان التوحيد ، واستهدف تحرير النفس الإنسانية والعقل البشرى من الوثنية والخرافة والأسطورة ، وإقامة منهج البرهان والعلم ، وهو الذى أزاح عن كواهل الناس تحديات وهمية عن خطيئة يؤخذ بها الناس من كل عمل لم يعملوه **فأعلن أنه لا تزر وازرة وزر أخرى** .

ولذلك فهم يفرقون بين الدعوة إلى نبذ الماضى إذا كان هذا الماضى– قريبا ملاصقا – هو الإسلام ، بينما يدعون إلى إحياء الماضى البعيد السابق للإسلام : ماضى الوثنية ، وعبادة النجوم والكواكب ، والمجوسية ، و تأليه البشر وصراع الآلهة .

الإسلام يجدد نفسه :

لقد عرف الإسلام القدرة الفائقة على تجديد نفسه وإعادة صياغة فكره كلما انحرف هذا الفكر ، أو أصابته دخائل حولته عن مجراه ، أو انتزعت منه جوهره ، ولقد كان الإسلام وسيظل كيانا حيا قادرا على التمدد والعطاء ، وقد كشف الإسلام عن طبيعته الأصيلة القادرة على النمو والتوسع ، دون إرغام ، وعلى التكيف مع المجتمعات ، وعلى المواءمة بين حيوات الناس وأفكارهم ، ومنذ ظهر وكل حدث مرتبط به على نحو من الأنحاء .

ولقد استطاع الإسلام حين امتحن بتحديات الصليبيين والتتار أن يدخل أرضا جديدة فى جنوب شرق آسيا وشرق وغرب أفريقيا ، واقتحم قلوبا جديدة ، فأضاف إلى معتنقيه أضعافهم ومنذ انتشر الإسلام لم يتغلب عليه متغلب من الأديان ، وإن تراجع عن الأرض فإنه لم يتراجع فى النفوس .

ولقد كانت الطريقة الوحيدة التى اختارها الإسلام للتحرر من الزيوف التى حاولت أن تقتحم أصوله الأصيلة من تحريفات وأساطير وتأويلات : هى العودة إلى المصدر الأصيل والمنبع الأول والجوهر الربانى ، وهو (القرآن) لتحكيم الناس فى ضوئه على كل ما بين أيديهم من أمور .

ولقد دعا الإسلام فى منهجه إلى إنكار الظن ، والغرض ، والأسطورة ، والخرافة ، والوهم ، والهوى ، وطالب بالدليل والبرهان .

ركائز الفكر الإسلامى :

إن الأخطار التى تواجه الإسلام والفكر الإسلامى تقتضينا أن نكون على حذر دائم من مختلف التيارات والدعوات التى تحاول أن تغزونا ، أو تثير الشبهات حول قيمنا الأساسية ، وأن علينا دائما أن نكشف الفوارق الدقيقة بين مفاهيم الفكر الإسلامى والفكر الغربى ، فى كل المجالات ، **ومفتاح الحقيقة فى فكرنا يقوم على ركائز التوحيد والأخلاق والإيمان بالغيب .**

وعلينا دائما أن نفرق بين المعارف والعقائد ، فالمعارف إنسانية عامة ، والعقائد خاصة وذاتية ، وكل أمم لها عقائدها التى لا تنقلها إلى أمم أخرى ، أما المعارف فهى عامة وملك للبشرية كلها .

إننا نؤمن بذاتية الثقافة وعالمية العلم ، وعلينا أن نداوم غربلة القيم ، وما يتصل بها من مفاهيم المعرفة ؛ لنعرف المعارض والدخيل والأساسى ، وعلينا أن نتحرر من نفوذين : نفوذ مدرسة تؤمن بالخرافات والإسرائيليات ، ومدرسة تؤمن بمذاهب المستشرقين والمبشرين فى فهم التاريخ والدين .

وليس صحيحا أن الوثنية والمفاهيم الجاهلية كانت أساسا ، أو مقدمة لحضارة الإسلام ، ولقد صنع الإسلام مجتمعه من جديد ، كانت فى الجاهلية قيم الكرم والبطولة والمروءة ، موجهة للفخر والمباهاة والمطامع الفردية ، فلما جاء الإسلام حولها إلى وجهة الحق وجعلها خالصة لله .

الْقُرآنُ عالَميٌّ وَخالِدٌ

إن الإنسان بلا عقيدة يفقد سبب وجوده ، ووجهة حياته ، وعصمة أمره ، ولا يعرف أول الطريق ، ولا نقطة الانطلاق ، ولا مفتاح الهدى من الحيرة ، حين تتشابه أمامه المسالك ، أو تضطرب أمامه المفاهيم .

نحن لا شيء بلا عقيدة ، ولا نجاة من الانهيار النفسي إلا بعاصم ، ولا نجاة من حيرة الفكر إلا بموقف . ولقد كان **الإسلام – وما يزال – دائما هو القادر** على تجديد النفس وهداية **العقل** ، وإعادة صياغة الحياة .

والأسلوب القرآني عالمي وخالد . والأساليب الأخرى مرتبطة بعصورها وبيئاتها : أسلوب الفلسفة ، أسلوب العلم ، وأسلوب المنطق ، أما الأسلوب القرآني فإن حصانته من كل زيف ، أنه يعتمد على الفطرة ، وينطلق من الغاية ، ويتسم بالإنسانية ، ويقوم على الدليل ، ويجانب الهوى ، ويطالب بالبرهان ، وسيقبل وجهة النظر الأخرى إذا تبين أنها الحق ، ويتنازل عن رأيه إذا عرف أنه باطل . فهو بهذا أصدق المناهج ، وهو إلى هذا متكامل ، فيه وجدان النفس وبيان العقل ، ومنطق التجربة ، وعبرة التاريخ ، ونظرة الوجود ، وخشية الله .

والأسلوب الحديث الموصوف بالعلمية هو أحد أساليب التغيير ، لا هو كلها ولا هو خيرها ، ولا هو متحرر من أهواء النفس أو رغبات الغرض .

وهو أسلوب يعايش فترة من الزمن ، كما يعايش غيره فترات أخرى سابقة أو لاحقة ، فالسعي لفرضه على غيره مخالف للطبيعة .

وإذا كان أسلوب الحديث علميا فأي الأساليب : الرياضي ، أم التجريبي ، أم الفلسفي .

إن الثقافة التي نقلت إلى المسلمين من اليونان والإغريق لم تكن صحيحة الأصول ، بل كانت محرفة ، حرفها السريان والنساطرة لخدمة مذاهبهم ، ومن هنا كان فسادها واضطراب أمرها ، مما حال بينها وبين أن تعطي الفكر الإسلامي شيئا إيجابيا .

ولقد كان الفكر الإسلامي قادرا على التقبل والتفتح ازاء معطيات الفكر البشري دون أن يخرجه ذلك من أصالته ، أو يزيف جوهره .

وإن أبرز ملامح الفكر الإسلامى أنه ثابت الجوهر متغير الصورة ، هناك مقومات أساسية يقوم عليها جوهره تتيح له دوما القدرة على التلقى والامتصاص ، والانفتاح على الحضارات والثقافات ، فهو يزود الثقافات بما عنده ويأخذ منها ، ويرفض على قدر حاجته ومع محافظته على مقوماته الأساسية .

ولما كان لكل فكر طوابعه ، ولكل ثقافة ذاتيتها فإن الفكر الإسلامى لا يعمل إلا ضمن النطاق الذى رسمه القرآن وفى ضوئه .

إن أعظم منجزات الفكر الإسلامى التى تذكر له بالفضل والفخر ، هى قدرته على تحطيم قيد الإغريقية ، وتدمير قيد الهلينية ، حين حاولت أن تكبل الفكر الإسلامى ، أوتستوعبه .

وان الأمم حين تريد أن توائم بين ذاتيتها وبين روح العصر ، دون إذابة شخصيتها ، أو إضاعتها فلن تجد معطيا أعظم من الإسلام ، فهو القادر على إغناء الفكر دون أن يذوب فى فكر أمة أخرى .

إن أخطر ما تدعو إليه مبادىء الإلحاد والإباحية المستهترة تحت اسم الحرية : هى هدم ضوابط الأخلاق ، ذلك أن القوى المستترة تريد أن تلقن الأجيال دعوات الجنس والانحلال ، وتفتنهم بأن كل ما حرمه الدين مباح ، وهى لذلك تدعوهم إلى الجنس عن طريق القصة ، ونوادى العراة ، وفلسفات علوم النفس والأخلاق والاجتماع مما تقدمه المدرسة الاجتماعية .

الإسلام والعلم :

العلم فى نظر الإسلام : حبة فى عقد طويل من جوهر الفكر الإسلامى نفسه ، فهى ليست مستقلة ولا منفصلة ؛ **فالإسلام لا يفصل العلم عن الإيمان** ، **فمعرفة** قواميس الكون وقوانين الطبيعة لا تغنى عن معرفة المصدر الأول والصانع الأكبر ، الذى يمسك القوى كلها ، ويحركها لحظة بعد لحظة . لقد انفصل الفكر الغربى عن هذه القاعدة ، فواجه الأخطار والأزمات .

كذلك فالإسلام لا يفصل العلم عن صاحب العلم أو قائله ، فلا يحصل العلم إلا من مصدر ثقة ، فإذا أصاب الريب حامل العلم كان ذلك مدعاة للشك

فيما يقول . والمسلم يتلقى مسائل الطبيعة والصناعة والفلك والزراعة من كل حامل علم ولكنه لايتلقى العقيدة أو الفطرة إلى الوجود والحياة إلا من المسلم المؤمن بالله .

ولقد دعا الإسلام إلى إعادة النظر فيما اصطلح الناس عليه من نهائى ومطلق ، وكان له موقفه الصريح أمام الأسطورة والخرافة والوهم والسحر ، ودعا إلى الدليل والبرهان .

ولقد دعا الإسلام قبول العلم ، ولكنه دعا إلى تحريكه داخل إطار التوحيد فليس حتما أن يقبل من أهل العلم طرق معيشتهم ، أو أسلوب حياتهم ، أو طريقة تعاملهم مع العلم .

والإسلام يحرك منجزات العلم فى دائرة السلام والخير والرحمة والعطاء لكل البشرية ، وليس لفئة خاصة منها

كذلك فالإسلام يرى أن العلم يعجز عن كل المشاكل ، وهو مهما تقدم ، فهو محدود ، وهو لا يستطيع أن يسد مكان الدين ، وفى أمور هامة من أسباب الطمأنينة النفسية والسعادة لا يوجد غير الدين الذى يسد الفراغ ، ولا يسد فراغ الدين أى شىء آخر .

تكامل الفكر الإسلامى :

حين احتاجت المجتمعات الغربية إلى وضع مناهج للحياة والاقتصاد والاجتماع كان ذلك حقها ، لأنها لم تجد مناهج فى دينها ، فقد كان دينها روحيا خالصا ، علاقة بين الله والإنسان ، مجموعة وصايا ، ولذلك تعددت مفاهيمهم حول المال والإنسان والمرأة والمجتمع ، أما المسلمون فإن لهم منهجا متكاملا ، متصلا بفطرتهم جربه أسلافهم وسعدوا به ، فلماذا يحجبونه ويطلبون مناهج الذين مازالوا يجربون دون أن يصلوا إلى ما يسعدهم ؟ .

ولا ريب أن الفكر الغربى يصدر عن منطلقات قائمة على الهوى والغرض ، والعنصرية والاستعلاء ؛ فالإنسان ينظر إلى البشرية على أنها خادمة له ، وله حق السيطرة على مقدراتها ، واستعبادها ، وأن فكره هو الفكر البشرى ، وتاريخه هو تاريخ الإنسانية ، ذلك أمرهم وتلك تحديات فكرهم ، ولذلك فقد كانوا هم أولى

(بأيدلوجياتهم) النابعة من مفاهيمهم والمختلفة فى مظاهرها وأهدافها عن مفاهيمنا ، ولذلك فقد عجزت هذه المناهج والنظريات حين نقلت إلى أفق العالم الإسلام عن أن تحقق شيئا ، أو أن تنجح فى استقطاب الفكر ، أو صناعة الحياة .

ومن الحق أن نقول : إن الماركسية والديمقراطية ومفهوم القومية الغربية كل ذلك قد عجز عن أن يقدم للمسلمين والعرب ما يرضيهم ، ولقيت صعابا شديدة فى مواجهة الفكر الإسلامى الذى يستمد مضمونه من منهج ربانى محكم فيه الثوابت والمتغيرات يلتقى بالإنسان مع الفطرة والعقل والعلم ، ويساير الأزمان والبيئات دون أن تسيطر عليه المتغيرات أو تقتحمه المناهج البشرية ، هذه المناهج التى سرعان ما يتكشف نقصها عن التكامل وقصورها عن معايشة الأزمان ، وعجزها عن العطاء التى تتطلع اليه النفس العربية الإسلامية من خلال مفهومها الجامع المحكم الذى أمدها به الإسلام منذ أربعة عشر قرنا والذى مهما نحى عنها فهو قائم فى أعماقها .

الإسلام وتربية الإرادة :

إنما يدعو الإسلام أهله إلى بناء الإرادة ، وإقامة الضوابط ؛ لأنهما مناط المسئولية الفردية ، فالإرادة القائمة على الإيمان بالله تكبح جماح النفس ، وترد الهوى ، وتلجم الشهوات ، ولذلك جاءت دعوة الإسلام إلى تربية الإرادة وتقويتها ، وبناء قاعدة الكظم والمجاهدة ، والعمل على ارتقاء شح النفس ، والإنصاف من النفس .

والكظم هو قمة الدين ، وهو معارضة صريحة لدعوة العصر فى الانطلاق بلا حدود ، والمجاهدة تعنى السير ضد تيار الأهواء والمطامع والرغبات المذلة .

وتقوم الإرادة الحرة على الأخلاق ، ولقد دعا (لامارك) إلى الإرادة الحرة ورفضها (دارون) فأيدت التلمودية (دارون) ، واستهدفت فرض الجبرية على البشرية .

ولقد دعا الإسلام إلى الإرادة الحرة بعد أن بين طريق الخير وطريق الشر ، وجعل الاختيار من حق الإنسان ، وعليه أن يحتمل تبعته فى السلوك والجزاء . وكانت رسالات الرسل بوحى السماء تستهدف تبليغ هذا الهدف إلى البشرية ، وفى

الإنسان قوة مريدة فعالة ، فى هذا الكون تحرك التاريخ وتغير الواقع ، وهى إرادة محدودة داخلة فى إرادة الله العليا ، ولذلك يرفض الإسلام تفسيرات بعض الأديان بما يسمى الحرية الجبرية اللاهوتية التى تقول : إن الإنسان ليس له إرادة وأنه مسير لا مخير ، وما يتصل بها من مذاهب المدرسة الاجتماعية الحديثة ، فما كسبته أيدى الناس هو عملهم والتنصل من تبعته باطل .

نظرة الإسلام إلى القيم :

المفهوم الإسلامى يقرر أن لكل قيمة وجهين متكاملين غير منفصلين : ماديا ومعنويا ، وعقليا ونفسيا ، ودنيويا وأخرويا ، ثابتا ومتغيرا ، لا انفصال بينهما ، بينما يقرر المفهوم الغربى أن لكل قيمة وجها واحدا فهو إما مادى وإما معنوى ، والمعنويات كلها توضع فى حساب الغيبيات التى تعامل معاملة المفقود ، لا الموجود .

إن المفهوم الإسلامى الجامع قد يعجز العقل الغربى حين يرتاد البحث فى الفكر الإسلامى ، أو حين يطالع المسلم ثمرات الفكر الغربى دون أن يكون عارفا بأصول فكره .

ومن هنا يعجز المستشرقون والباحثون الغربيون عن استيعاب الفكر الإسلامى حيث يجدون من طبيعة فكرهم الجزئية الانشطارية ما يحول بينهم وبين سعة النظرة إلى الأبعاد الواسعة ، فإذا كان هؤلاء ليسوا على قدر من فهم للبيان العربى فى اللغة والمضمون عرفنا إلى أى حد تتعثر نظريات المستشرقين والباحثين الغربيين حول مفاهيم الإسلام والفكر الإسلامى .

فالإسلام لا يفصل بين القيم ، ولا يعزلها بل يعارض انشطارها ويرى تكاملها . ومن أخطر ما يوجد الصراع فى الفكر الغربى هذه النظرية التى تقسم القيم إلى أخلاقية تقوم على أساس الوجدان والنفس ، وعلمية تقوم على أساس العقل والفكر ولا سبيل إلى اجتماعهما ، كذلك ففى الغرب اليوم أزمة الثقافتين: العلمية والأدبية ولعل هذا أيضا هو مصدر الصراع فى النفس الغربية التى تعلى من شأن الوجدان فى الوجودية وتعلى من شأن العقلانية فى المادية وبذلك تقوم أزمات التمزق والضياع والقلق . كذلك هناك إعلاء مفهوم الطعام فى مذهب (ماركس) ، وإعلاء مفهوم

الجنس فى مذهب (فرويد) ، أما الإسلام فيتقبل ذلك كله فى نسب مختلفة ، ويجمع بينه فى تكامل ويضع الضوابط والقواعد حتى يلتقى بالنفس الإنسانية ، والفطرة البشرية .

الحضارة الإسلامية :

أول خطوة إلى أية حضارة هى العقيدة والقيم الموجهة ، والأخلاقيات التى تواجه السلوك ، وفى الإسلام لا يتنافى الدين مع التقدم ، والتقدم ليس ماديا صرفا ، بل هو مادى ومعنوى، بمعنى أن العبرة ليست بالتفوق التكنولوجى ، أو المعطيات المادية ، بل العبرة بإقامة الفكرة والعقيدة .

فالإسلام يضع الضوابط ضد حركة العمل فى مواجهة الربا ، ويضع الضوابط ضد حركة الرغبات فى مواجهة التحلل ، وليس فى الإسلام حرية الاقتصاد التى تسمح بالربا ، أو حرية الحياة بمعنى حرية الغريزة وانطلاق الشهوات .

إن هذه المحاولات التى ترمى إلى تصوير الرغبات بأنها غرائز لا سبيل لإيقافها ، أو التى ترمى إلى القول بأن تكوين المجرم البشرى هو مصدر إجرامه ، أو تلك التى تهدف إلى إعلاء المزاج النفسى على العقل ، كل ذلك لا يقره الإسلام .

ذلك أن إرادة الإنسان ومسئوليته هى القادرة على حمايته من دوافع الرغبات ، وأن ما نسميه غرائز قد ثبت أنها إنما هى ميول لدنه يمكن توجيهها أية ناحية وأن ٩٩ فى المائة مما نسميه غرائز – كما يقول علماء النفس – إنما هى اتجاهات اجتماعية قد غرسها فينا المجتمع برجوع انعكاسية مكيفة ، فالمجرم يرتكب جريمته بعادات ذهنية وعاطفية واجتماعية وليس بغريزة موروثة .

ولقد ثبت أن كل ما حاول التحليل النفسى التخويف به من توجيه الأبناء خشية ظهور العقد هو باطل ، وأن ما قيل عن الكبت هو غير ما يراد بمعنى إعلاء الرغبة فى ظل مفهوم الإسلام الذى يقررها أساسا ، ثم يرجئها إلى وقت القدرة على الزواج وإنشاء الأسرة الطبيعية .

مـن مميزات الإسلام

يقيم الإسلام قاعدتين أساسيتين : الثبات ، والتوازن .

أما الثبات فهو الإطار ، والحركة قانون تعرف به ولكنها لا تجرى فى فراغ وهى ليست حركة مطلقة من كل قيد فهى حركة فى فلك ومدار لا يتجاوزه . ويعلن الإسلام ثبات قيم كثيرة هى الأخوة البشرية ، والعدل ، والجهاد ، وتحريم الربا ، والالتزام الخلقى ، والمسئولية الفردية . ويعلن ثبات الأخلاق (الخير والشر والحلال والحرام) ويعلن ثبات الحدود ازاء الخمر والقتل والميسر والزنا كذلك فالإسلام يقيم التوازن بين النفس والجسد ، والعقل والقلب ، والروح والمادة ، والدنيا والآخرة .

ويرتب الإسلام للقيم سلما ، ويضبط نسبها ودرجاتها ويجعل على رأسه التوحيد والعبادة والعمل والإنفاق والجهاد والمباحات والممنوعات .

زيف النظريات الغربية :

إن النظريات الغربية الوافدة هى استجابة لتحديات مجتمع بعينه ، له مشاكله وأزماته وقيمه وعقائده ، وقد قامت هذه النظريات على مقياس ذلك المجتمع ، ومن خلال واقعه ، فهى خاصة به ؛ ليس لها كمال النظرية ، أو شمولها لمجتمع آخر ، أو لظرف مغاير ومختلف ، هذه النظريات المطروحة الآن فى أفق الفكر الإسلامى مصوغة فى أسلوب براق له طابع علمى زائف يخفى ما وراءه من تناقض واضطراب ، وقد طرحت هذه النظريات بعد أن مهد لها بإيجاد منطقة فراغ نفسى وعقلى فى الدراسات ومناهج التعليم أتاحت لمثل هذه المواهب أن تجد مكانا ، هذا بالاضافة إلى يسر تداولها والحفاوة بنشرها واذاعتها ، وقد أثرت هذه النظريات فى الكثيرين وانحرفت بهم عن الفطرة والأصالة ، ومفهوم الإسلام الصحيح . غير أن هذه النظريات لم تلبث أن فقدت بريقها ، واستطاعت مراجعات المفكرين المسلمين لها أن تكشف زيفها ، وأن تبين الفرق العميق بين مناهج القرآن ، وبين مناهج الفكر البشرى ، وكيف أن مناهج القرآن ثابتة بثبوت الفطرة وقائمة على أساس معطيات النفس الإنسانية فى رغباتها ومطامحها . وفى عجز هذه النظريات عن الاستجابة وقصورها عند جانب واحد .

ولقد ظهرت هذه النظريات فى الغرب خلال هذه المرحلة : مرحلة انحلال هذا المجتمع وأزمته ووقوعه فى أنياب الأزمة الطاحنة ، أزمة الاحتواء الصهيونى التلمودى للفكر الغربى المسيحى وسيطرته عليه .

فعلى المسلمين والعرب أن ينتبهوا إلى هذه المخاطر التى تواجه فكرهم ، وأن يتيقظوا للمذاهب الهدامة التى تصاغ فى نظريات تدور حول العقيدة والنفس والأخلاق والمجتمع ، ولابد أن تجد النفس العربية الإسلامية فطرتها وأصالتها ، وأن تستمد وجودها ومنهجها من مصدرها الأصيل القادر على إعطاء البشرية هدايتها ونورها .

ما زلنا نواجه الزحف الذى انطلق فى القرن السادس عشر بأساطيل البرتغال من الغرب وخيول المسكوف من الشرق لتطويق العملاق الإسلامى ، إنها الحرب التى بدأها ولم تنته بعد ، وكانت الصهيونية فى ركاب الاستعمار تابعه ووريثه .

لقد حملت هذه الموجة معها محاولات لفرض نظم فى الاقتصاد والسياسة تختلف عن طبيعة الأمم وقيمها ، ولقد كشفت التجارب المتعددة حاجة الأمم إلى المادة والنظر فى تلك المناهج الوافدة .

كما حملت معها القانون الوضعى الذى جرى تطبيقه بديلا للشريعة الإسلامية ، ثم ظهر من عيوبه ونواقصه ما كان بعيد المدى فى إفساد الحياة الاجتماعية مما دعا المصلحين إلى التماس مصادر تشريعاتهم من القرآن ، كما حملت معها محاولات إسقاط أسس وقيم وفرائض كان لإسقاطها أبعد الأثر فى تعجيز المسلمين والعرب عن مواجهة أخطار الغزو الخارجى ، كما عمدت مناهج الغرب الوافدة إلى إسقاط فريضة الجهاد . كذلك جرت المحاولات لتحريف التاريخ والنصوص الأساسية ، على نحو استهداف إفساح الطريق لإقرار مفاهيم زائفة حاولت الصهيونية إقرارها ، كالتشكيك فى رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز وبناء الكعبة مع إسماعيل عليه السلام. كما جرت المحاولات لإضافة أشياء ليست أصيلة مثل الإسرائيليات التى حفلت بها كثير من كتب التفسير ، كذلك جرت المحاولات لإدخال التأويل فى التفسير بما يبرز الواقع ، أو يتخذ من الإسلام سلاحا لتأييد مذهب ما ، أو

أيدلوجية مختلفة عنه تمام الاختلاف . ولقد وضح الغزو الفكرى التلمودى الصهيونى منذ وقت باكر فى دراسات متعددة : منها ما يتعلق باليهود فى جزيرة العرب ، ومنها ما يتعلق باللغات السامية وفيها ما يحاول قطع الصلة بين الحنيفية دين إبراهيم وبين العرب .

لَا عُبُوديّة إلاالله

إن النظرة الفاحصة للتاريخ تكشف عن أن الإسلام قدم للبشرية يوم جاء حقيقة ذات ثلاث شعب هي : (١) التحرر من ظلمة العبودية البشرية إلى الإخاء الإنسانى (٢) التحرر من ظلمة الوثنية إلى توحيد الله (٣) التحرر من ظلمة الجهل إلى الحضارة والمدنية .

وبذلك كان الإسلام فيصلا بين عهدين وعلامة بين عصرين حين أهدى الإنسانية حقيقة التحرر من الظلمات الثلاث . فلقد كانت البشرية من خلال الحضارات الأربع القديمة السابقة للإسلام (الرومان - الفرس - الهند - الفراعنة) غارقة فى نظام عبودى قاس، قوامه جماعة من السادة فى الأعلى ينعمون ويترفون ، وأمم من العبيد تساق بالسياط ، وترمى أمام الأسود وتقدم للوحوش المفترسة بالمئات عقابا لخطأ واحد منها ، وأبرز صورة العبودية نراها عند أرسطو ، وأفلاطون ، وسقراط شيخهم . والصورة المثلى فى جمهورية أفلاطون (الجمهورية القائمة على النظام العبودى) دفاع عن العبودية وعن الرق وعن حق أصحاب السلطان فى القتل والإبادة ، فإذا انتقض عبد على سيد سمح للسيد بالانتقاض على جميع العبيد ، وإذا ساد العبد فسيظل عبدا مهما أوتى من سلطان السيادة . وهناك صورة ليكروجوس مشترع أسبرطة وهو يطالب بقتل آلاف الأطفال الضعاف .

فى هذا الجو العاصف المتهجم من القسوة والظلم يجىء الإسلام فيقرر أنه لا عبودية إلا لله وحده ، ثم يعلن الإسلام قاعدة جديدة تنطلق ولها دوى مهيب وصدى رهيب : حين يقرر وحدة البشرية كلها « كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربى على أعجمى ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى »..

حين أعلن الإسلام أنه لا تفاضل بين البشر إلا بالجهد والعمل والكفاية ، وأنه ليس لإنسان على إنسان سيادة ، أو تمييز ، حطم - منذ ذلك اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - حطم مفهوم السيادة العنصرية القائمة على الدم الخاص والأرومة الخاصة ، وأوقف الكبير والصغير أمام الحق سواء . وصدق رسول الله « كان الناس قبلكم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، أما والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

بذلك حرر الإسلام البشرية من العبودية وكذلك حررها من الوثنية بالدعوة إلى توحيد الله وحده ، فليس هناك من خالق ولا من رازق غير الله ، وكذلك أطلق التوحيد العقل البشرى ، والنفس البشرية من القيود التى كانت تأسرها حول الأصنام والأوثان ، فارتفعا إلى مستوى الاعتقاد بحياة أخرى وراء هذه الحياة .

كذلك حرر الإسلام البشرية من الجهل ،ودفعها إلى التحضر حين دعا القرآن إلى النظر فى الكون والبحث فى الأرض والبحر واكتشاف سنن الله فى الطبيعة ، فكان المسلمون هم الذين بدأوا هذا العمل ، فاستقام لهم فأنشأوا المنهج التجريبى الذى نقل البشرية من المنهج النظرى اليونانى القائم على التأمل والمنطق ولما جاء المسلمون صححوا أخطاء بطليموس وأرسطو ، وعمدوا إلى التجربة ، وتركوا آثارهم فى كل فنون المعرفة .

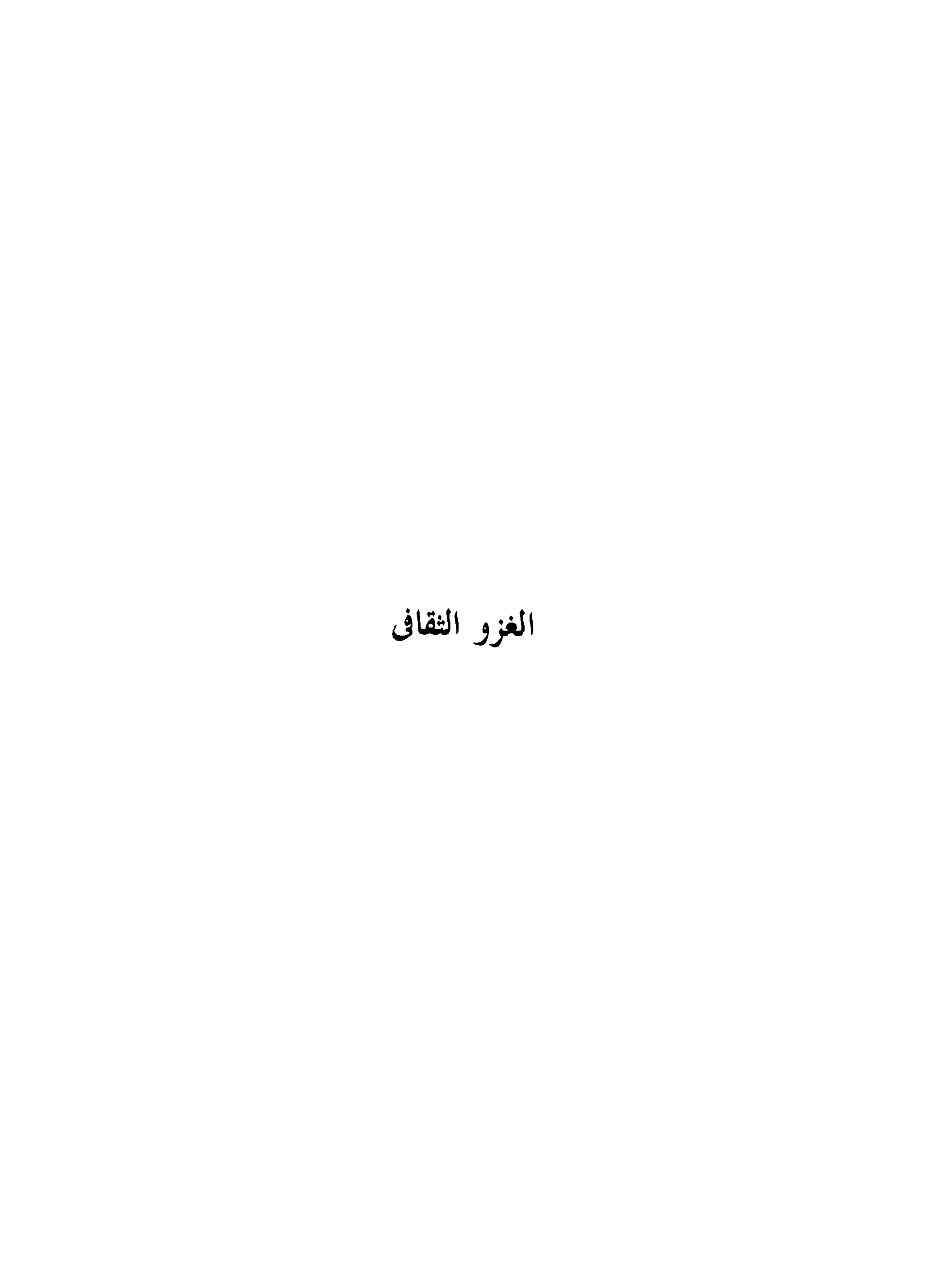
إن تسلط النزعة المادية على الحضارة قد خلق وثنية جديدة هى أخطر من الوثنية التى جاء الإسلام للقضاء عليها . والوثنية عبارة عن عبادة الجسد ، وهى اليوم عبادة المال ، وعبادة القوة ، وعبادة السلطان ، وعبادة العلم ، وعبادة الحضارة ، وعبادة العنصرية ، وعبادة اللذة والترف والرفاهية .

إن معنى الوثنية أن يخلق الإنسان إلها يعبده ، ويتخلى عن عبادة الله الحق . إن التلمودية اليهودية قد سيطرت على الفكر الغربى فنقلته إلى عبادة العجل الذهبى والمال ، وسيطرت عليه لبناء « امبراطورية الربا » .

إن العلم الذى هو معبود الغرب اليوم قد عجز عن أن يقدم للبشرية حلا لأزماتها ومشاكلها ، فما سوى المتاع المادى فإنه لم يحقق شيئا ، أما النفوس فهى تواجه أزمة خطيرة خانقة ، هى أزمة الضياع والتمزق والانهيار .

العالم ليس مادة فقط ، وليس علما وعقلا فحسب ، ولكنه إلى ذلك روح ووجدان وقلب وعاطفة . ولطالما استطال القوم بالقول بأنهم تسلطوا على القدر ولم يخضعوا له . وأنهم انتزعوا من الطبيعة خيرها ولم ينتظروها حتى تسديه إليهم ، ولكنهم غفلوا عن أن يكون ما يتحدثون به ثمنه هو المادة والمادة وحدها .

وغفلوا عن أن هناك عالما آخر ، وعلما آخر لم يعرفوه وقد حرموا منه ؛ لأنهم أنكروه .



الغزو الثقافى

جرت محاولات كثيرة فى أدبنا المعاصر ، جريا وراء مخططات التفريق والغزو الثقافى ، لتدمير الشخصيات النابغة فى تاريخنا وفكرنا ، وخاصة تدمير المتنبى ، وابن خلدون ، وابن تيمية ، والغزالى كما جرت نفس المحاولات لإعلاء شأن أبى نواس ، وبشار ، والحلاج ، حتى أن مستشرقا أمضى حياته كلها يجمع أخبار الحلاج ويكتب عنه الفصول الطوال والقصار .

وذنب هؤلاء الأعلام من مفكرينا فى نظر المبشرين والمستشرقين أنهم وقفوا أمام الفلسفة اليونانية ، ورفضوا الفلسفة الالهية التى تقوم على التعدد والوثنية .

ولقد كانت مواقف الغزالى فى مهاجمة الباطنية وعلم الكلام وأخطاء الفلاسفة فى التوحيد مقدمة لما قام به (ابن تيمية) من بعد ، حين هاجم المناطقة ومنطق أرسطو بالذات ، وكشف عن أن للمسلمين منطقا مستمدا من القرآن ، ويمكن رد أول هذه المحاولة إلى إمامين جليلين هما : الشافعى وابن حنبل ، الأول : حين وضع علم الأصول ، والثانى : حين وقف فى وجه محنة خلق القرآن ، فلما جاءت نظرة الإمام ابن تيمية كان قد تكامل تحرر الفكر الإسلامى من قيد الفلسفة اليونانية . وهذا هو « الشر الكبير » فى نظر الغربيين والذنب العظيم الذى يدفعهم دائما إلى الحملة على الرجلين العظيمين ، أما ابن خلدون فإنه قد سبق أعلامهم بخمسة قرون إلى مفاتيح علم الاجتماع والاقتصاد والتاريخ .وأما المتنبى فقد كان شموخه واعتزازه بالبطولة الإسلامية مصدرا للحملة عليه حتى ألف (بلاشير) كتابا ضخما حاول فيه هدمه وتدميره .

بين الإسلام ودعوات التغريب :

كان من أحرص ما عمدت إليه دعوات التغريب إثارة تاريخ ما قبل الإسلام والإذاعة به وتوسيع البحث فيه وذلك عن طريق البعثات الأثرية ، وانبعاث الدعوات الفينيقية والأشورية ، والبابلية والبربرية ، وذلك من أجل تفريق العرب والمسلمين عن وحدتهم العربية والإسلامية وإعادتهم إلى ماضيهم الوثنى قبل الإسلام وإعلاء هذا الماضى وتزيينه . وكان للكشوف الأثرية التى حرص النفوذ الاستعمارى على استغلالها أبعد الأثر فى دعم هذا الاتجاه . غير أن دعاة هذه الدعوات فشلوا ولم يحققوا شيئا ، وعجزوا عن أن يفصلوا واقعا قائما بالحق والتوحيد خلال أربعة عشر قرنا كاملا ،

وذلك هو الإسلام الذى كَوَّن العقلية والنفسية والمزاج العربى الإسلامى والذى يغاير مغايرة كاملة ما دعت إليه هذه الدعوات السابقة التى قامت على الوثنية والإلحاد والإباحة بينما قام الإسلام على منهج ربانى قوامه الفطرة السليمة ، وقد تقبلته هذه الأمم منذ اليوم الأول وأسلمت له وتحررت من وثنيتها واصارها القديمة ، وماتزال هذه الدعوات تتجدد لتغرى المسلمين والعرب بالخروج من قيمهم ومزاجهم النفسى ؛ ليصبحوا عجينة طيعة فى يد العالمية والأممية التى تريد أن تصهرهم فى أتونها الكبير . فلا يصبح لهم كيان خاص ولا شخصية متميزة . لقد كان الاستعمار والتغريب والصهيونية والماسونية والتبشير على اهتمام موحد واتفاق متحد فى الاهتمام بالدعوات القديمة التى كانت قبل الإسلام ، وهى كثيرة ، ومنها الدعوات الفرعونية والبابلية والوثنية وغيرها بما تحمل من أساطير وخرافات وسحر وأوهام ، وهى تحاول أن تجددها اليوم فى صورة جديدة من القصص ، والمسرحيات لتكون عامل إغراء للشباب يستهدف تدمير القيم الإسلامية ، ولمعارضة التوحيد ، والنبوة ، والدين الحق .

مُعْجِزَةُ الْقُرآن

من أهم عوامل القدرة على مواجهة الحرب النفسية التى يشنها أعداء العرب والإسلام ومقاومتها : الحفاظ على اللغةِ ، والتاريخ والتراث .

ومفهوم المسلمين عن اللغة العربية أنها لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم ، فاللغة العربية هى لغة العرب وهى لغة الإسلام نفسه ، وقد كانت معجزة القرآن أن جميع الأمم التى تتكلم العربية وتفكر بها تجمعها وحدة فكر وتربطها آصرة إيمان واحد . ولا ريب أن القرآن هو الذى حفظ اللغة العربية ، وسيبقى هذا النموذج الخالد دائما قمة البيان العربى ، ومن المستحيل أن يظهر عمل من صنع الإسلام يفوقه بيانا وإحكاما، أو يصل إليه أو يقترب منه؛ ذلك لأن تفوق القرآن ليس من صنع البشر ولا من قدرتهم .

أما التاريخ فقد كان مفهوم الإسلام له أنه تحقيق إرادة الله فى الأرض . وبناء نظام عملى كريم ، وما من دين استطاع أن يوحى إلى المتدين به شعورا بالعزة كالشعور الذى يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع ، وإن اعتزاز المسلم بدينه كما يقول بعض مفكرى الغرب يعم المسلم على اختلاف القومية واللغة ، وأن المسلم لا يفهم الإسلام إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهرا وباطنا .

أما التراث فإنه الميراث الحى المتصل بالحياة والمجتمع خلال أربعة عشر قرنا لم ينفصل ولم تنقطع به طريق ، أو حــدث ، أو حائل من حوائل التاريخ أو الحضارة .

أمة الجهاد

إن الصوت الصادق الأصيل الذى ارتفع فى السنوات الأخيرة بالقول بأنه لابد من عودة فريضة الجهاد إلى حياة المسلمين مرة أخرى كقوة اجتماعية وسياسية هو صوت الحق ، وضوء الحق إلى الطريق الصحيح للمستقبل الإسلامى والعربى كله ولأمد بعيد .

بل إنها الحقيقة التى إذا ما وضعها المسلمون موضع التنفيذ فإنهم لن يقعوا فى أزمة الغزو ، وتحديات الأخطار التى تحاول أن تحيط بهم ، وتمزقهم ، وتقضى على قيمهم ، ومقومات فكرهم ومجتمعهم .

إن أمة الجهاد لا تستطيع أن تحيا حياة صحيحة إلا إذا وضعت هذا الهدف موضع التنفيذ ولقد شهد تاريخ المسلمين خلال أربعة عشر قرنا بأنهم ما تخلفوا وما أصابهم الوهن إلا حين أهملوا هذا الركن الركين من حياتهم وفكرهم .

وليست فريضة الجهاد قتالا ، ولكنها وقاية من غزو الأعداء ، إنها هى المرابطة فى سبيل الله . المرابطة الدائبة التى لا تتوقف على الثغور ، وحول الحدود فى يقظة وقوة طلبا للشهادة واعداد العدة والقوة التى تجعل العدو يفكر ألف مرة قبل أن يقدم .

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ [1] .

ولقد قدم الإسلام للعرب المثل الأعلى للحياة المثلى ، والمجتمع الأمثل . إن العرب بالإسلام كل شىء ، وهم بغير الإسلام على فتات الموائد .

---

(١) سورة الأنفال .

خُطْوَة عَلَى الطَّرِيق

إن ضوءا جديدا يبدو من وراء الأفق ، ويتشكل الآن فى النفس العربية يدفعها إلى اتجاه أصيل يعيد اليها بناء فكرها ، ومجتمعها على أساس من شرعة السماء ، ويدفع مِوجة التحديات الفكرية ، ويكشف عن الشبهات والأخطاء . ويمكنها من امتلاك إرادة الأصالة وتصحيح المفاهيم ، كل هذا يؤكد أنه خطوة على الطريق الصحيح إلى المواجهة القادرة بالإيمان العميق لاستكمال النظرة وشمول الرؤية وتحرر النفس والعقل العربيين وخروجهما من دائرة التغريب التى تحاول أن تقسرها على التفكير بمقاييس زائفة ، ذلك أن الخروج من هذه الدائرة المغلقة هو أول علامات النصر الحقيقية ، وهى تعنى التماس المنابع والأصول والخروج من الزقاق الضيق الذى حبس التغريب فيه الفكر الإسلامى ما يزيد على نصف قرن من الزمان .

غير أن الخروج من دائرة التغريب إنما يستلزم الدخول إلى دائرة الأصالة والثبات فيها، وتأكيدها وبناء قلاعها وحصونها التى تدافع بها عن وجودها وحياتها إزاء تجدد الغزو ، وإثارة الشبهات والحملات الضارية من دعاة التغريب والتبشير والاستشراق والشعوبية .

يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب :

«إنما تنقضى عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية» .

وما أعتقد أن كلمة يحتاجها عصرنا هذا ويجب أن ننظر فيها ونتعمقها مثل كلمة الفاروق هذه فإننا قد نرى بعض التحولات الخطيرة فى فكرنا ومجتمعنا، ثم لا نجد إزاءه اهتماما ، أو وعيا . ظنا أن ذلك من الأمور اليسيرة التى قد تذهب ، أو تجىء ، بينما لو أننا تعمقنا النظرة لوجدنا أنها محاولة من محاولات ضرب القواعد الأساسية لفكرنا القائم على التوحيد، وأن هناك فروقا دقيقة بين الحق والباطل وبين الوثنية والتوحيد وأن تنقلنا حثيثا من نقطة إلى نقطة ومن تنازل عن أشياء ربما رأيناها يسيرة فى مظهرها ، إلى تناول آخر ، وآخر ولذلك فإن صورة الجاهلية يجب أن تكون واضحة بما فيها من وثنية ، وانحراف ، وتضاد مع الحق ، والتوحيد ، والإيمان .

ولذلك فإن علينا أن نؤمن إيمانا عميقا ، وأن نعمل دائما على التعرف على الأبعاد الواسعة لقضية فكرنا الإسلامى ، وأن نكشف أولا بأول كل الشبهات والزيوف التى تحاول أن تجعل من نفسها مسلمات ، أو حقائق ..

اليقظة اليقظة ، وخذوا حذركم ..

تضليل باسم العلم :

من أخطر محاولات التغريب أن يفرض لنا منهجا معينا فى البحث تحت اسم العلم ، ثم لا نجد هذا المنهج مطبقا فى بلاده ، ولا بين أهله ، ومعنى هذا أنه منهج مستحدث للمستعمرات ، وبلاد الإسلام التى يراد أن يقضى فيها على الذاتية والكيان . ومن أمثلة ذلك قولهم فى التراث : إنهم يحاولون بكل وسيلة العمل على فصل الأجيال الجديدة فى الثقافة عن القديم ، فالأدب العربى الحديث فى دعواهم أدب منفصل نشأ فى العصر الحديث ، وارتبط بالحملة الفرنسية ، ومعنى هذا أن خيطه ليس متصلا بالأدب العربى الإسلامى فى عصوره الممتدة ، وكذلك ما يسمى (الفكر العربى) ، وهو فكر نشأ فى ظروف الاتصال بالغرب وأوربا ، ولذلك فهو منفصل تماما عن الفكر الإسلامى ، وعن المصادر الأساسية من اللغة والعقيدة والتاريخ ، وبينما تجرى النظريات الوافدة لإقرار ذلك فى أفقنا نرى أن الغربيين لا يؤمنون بالانفصال بين الحاضر والماضى ، فى تراثهم ، أو فكرهم ، أو أدبهم . فهم لا يرون فى الحديث شيئا له قيمة الخلود والبقاء إلا إذا كان ثمرة وامتدادا بالروح . والمعنى للأدب اليونانى الإغريقى الهلينى القديم ، ولا يرون الفكر إلا مرتبطا بالحضارة الرومانية وقانونها ونظامها . ويحدث هذا فكرا وتراثا انفصلت عنه أوربا ألف سنة كاملة بينما لم ننفصل نحن عن أدبنا وفكرنا يوما واحدا . وهم يطرحون علينا مناهج للترجمة تقوم على تعرية الأبطال ، وإثارة نقط الضعف فيها بينما يقدسون أبطالهم ، ويسبغون عليهم حلة من الزهو والبراعة والفن ، فإذا عرضوا لمواقف الضعف التمسوا لها العذر ، وخففوا أثرها ، وبرروها ، لماذا ونحن المقلدون فى كل شىء لا نقلد الغرب فى هذا المنهج .

الأخلاق والتقاليد :

من صور التمويه الخطيرة التى تحتاج إلى تنبيه وتذكرة : إحلال التقاليد محل الأخلاق ، والأخلاق من أصل الدين ، والتقاليد من صنع المجتمعات ، والأخلاق ثابتة والتقاليد متغيرة ، فلقد حرص التغريب على إيجاد التداخل بين الأخلاق والتقاليد رغبة فى إزاحة الأخلاق ، وإعلاء التقاليد ، تحت قصور مفهوم الإسلام ،

وذلك يتطلب منا يقظة ووعيا حتى نعرف الفرق بين القيم الخالدة التى هى مصدر القوة ، وركيزة المجتمع السليم ، وأن نزيل تلك التقاليد البالية التى أفسدت حياة المسلمين ، وزيفت ملامحهم الأصيلة ، وحولتهم إلى أشباه وثنيين وماديين .

ولقد كانت دعوة الإسلام وكلمة الرسول حاسمة فى التفرق والوضوح وعدم تقليد الأمم الأخرى فى مطامعهم وملابسهم وأسلوب عيشهم ، فى الموت والفرح والعيد وغير ذلك ، وما زلنا فى حاجة إلى هذا الوضوح ، وضوح الشخصية الإسلامية وتفردها ، هذه الشخصية التى بناها القرآن وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوتها المثلى وأسوتها الحقة .

﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ سورة الحشر .

فلنحرر أنفسنا من التقاليد ، ولنصل أنفسنا الأخلاق ، ولنعرف أن كل ما تتحرك فى إطاره مذاهب العلوم الاجتماعية والتحليل النفسى فى الغرب إنما هى التقاليد ، ذلك لأن هذه المجتمعات قد فرقت بينها وبين أخلاق الأديان منذ عهد بعيد ، ولذلك فهى ترى أن التقاليد تتطور وتتغير ونحن نرى معها ذلك ، أما الأخلاق ، أخلاق الدين فإنها ليست كذلك ، انها ثابتة ثبات قيم الإسلام نفسه .

مارسمه الإسلام للإنسان المسلم :

رسم الإسلام للإنسان المسلم صورة جامعة ذات أبعاد أربعة :

إذا استوفى منها بعدا ، أو بعدين ، أو ثلاثة ظل مع ذلك فى حاجة إلى أن يستكمل أبعاد شخصيته المؤهلة بالكمال إلى استشراف الملأ الأعلى .

(**أولا**) : عقيدة صحيحة تقوم على علم صحيح متحرر من أوهام النِّحَلِ ، أو أوهام المذاهب القديمة . قوامها مفهوم القرآن الذى كان رسول الله مطبقا له ، ليس مفهوم العقل وحده ، ولا الوجدان وحده ولكنه المفهوم الجامع لهما .

(**ثانيا**) :عبادة كاملة صادقة الإخبات لله أوقاتا وفرائض وحسن أداء ، مع التوسع والقدرة على النافلة وصلاة الليل .

(**ثالثا**) : خلق كريم : طهارة لسان وقدرة على احتمال الأذى والكلمة المسيئة دون تطلع إلى انتقام أو ظلم .

(**رابعا**) : قدرة على الإنفاق فى الله مع توقى شح النفس بالعطاء ودون ما إستعلاء ، أو منٍّ .

ولابد من تكامل هذه العناصر الأربعة فى شخص المسلم قدر المستطاع ، فيكون الخلق فى إطار العبادة ، ويكون الإنفاق فى إطار الإيمان مع الترابط الكامل .

ومن هنا نفهم عبارة القرآن الكريم: ﴿ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ﴾ إن الخطأ هو التفريق بين العبادة وحسن الخلق، أو بين العلم والعبادة، أو بين الشريعة والعبادة .

إن أعظم ما جاء به الإسلام : هو إفراد العبودية لله ، والتفرقة الواضحة العميقة بين الألوهية والنبوة من ناحية ، وبين الله والعالم من ناحية أخرى ، وبين الخالق والمخلوق من ناحية ثالثة . وسيدنا رسول الله هو أعظم بنى البشر جميعا ، ولكن الله سبحانه وتعالى نوه بتقديره فى إطار واضح هو أنه بشر رسول. وحرص رسول الله دوما على أن يقف الناس عند هذه القاعدة الأساسية فلا يجاوزونها ، حتى يوم كسفت الشمس ، وتصادف وفاة إبراهيم ابنه خرج مسرعا ؛ ليحدث الناس أن كسوف الشمس ظاهرة يذكر الله بها عباده ، وأنها لا علاقة لها بموت أحد ، أو حياته . ولقد أفرد الله سبحانه وتعالى نفسه باستجابة الدعاء ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب﴾[٢] وإن عظمة سيدنا محمد ومعجزته الكبرى وهى القرآن ليست فى حاجة إلى مزيد من تخيل ، أو إضافة معجزات أخرى مما ليس واردا فى القرآن ، أو فى السنة الصحيحة . ونحن المسلمين .نلتزم ما فعله رسول الله ولا نثق إلا بما جاء فى القرآن والسنة ، ولقد دعانا القرآن إلى الحق وحده ، والحق يكفى ، وإن قدر رسول الله ليس فى حاجة إلى مزيد منا بعد أن وصفه الحق تبارك وتعالى بأعلى ما وصف به بشر حيث قال ﴿وإنك لعلى خلق عظيم ﴾

العلم .... والأخلاق :

ظن أهل الغرب أن العلم سيكتشف لهم أسرار الكون ويجيب على السؤال الخالد : لماذا جئنا وما هو هدفنا فى الحياة ؟ غير أن العلم لم يلبث أن تواضع بعد إستعلائه ، وأعلن أن مهمته لاتعدو تفسير الظواهر ، وقدم تعريفا واضحا محددا ، هو دراسة أشياء هذا العالم بالملاحظة والتجربة لمعرفة خواصها وطبائعها واستخراج القوانين والنظريات المتعلقة بها ، أما فى مجال النفس الإنسانية ومهمة الإنسان فى الحياة وما وراء الظواهر ، فقد أعلن أنها ليست من مهمته ، وبذلك وضح أن هناك لونا آخر من المعرفة هو الذى يهدى الإنسان إلى أسرار الوجود والحياة ، ذلك هو الدين الحق الذى قدم عن طريق الوحى منهجا كاملا عن هذه الحقيقة ، وكشف عن العلاقة بين خالق الوجود والإنسان ، وبين الناس بعضهم بعضا ، وأبان عن مهمة الإنسان فى الحياة ومسئوليته وجزاءه بالمثوبة والعقاب بعد البعث والنشور ، ولكن الإنسان مازال عاجزا عن التلقى وقد بلغ به توقفه عن معطيات العلم المادى وحده أن أصابه التمزق والانفصام والقلق ، وما يزال الإنسان فى أزمته حتى يعرف طريقه إلى الله ، كذلك فإن تقدم العلم لم يضمن ارتقاء الأخلاق ، بل أدى إلى عكس ذلك، وليس مسئولية ذلك على العلم ولكن على الحضارة التى أخذت معطيات العلم منفصلة عن ضوابط الأخلاق .

الإِسْلَام مُستمَدٌّ مِنْ ذَاتِيَّتِه

إن المذاهب الوافدة لن تستطيع أن تستوعب أصول الإسلام ومفاهيمه ؛ لأنها لا تستهدف ذلك أساسا ولو حاولت أن تقصد إليه لعجزت بأدواتها القاصرة ، وهناك فى الغرب كثيرون فهموا الإسلام عندما تحرروا من مذاهبهم والتمسوا منابع الإسلام نفسه وأصوله الأصيلة ، فعلى المسلمين أن لا يخدعهم بحث الباحثين فى دينهم ، وعليهم ألا يتلقوا منهم تلك المفاهيم المسمومة التى يراد بها أن تردهم إلى مفهوم غربى قاصر للإسلام ، يجعله على مستوى التفسيرادت الناقصة ، ويحد من سعته وعمقه ، ولا يستطيع استيعابه وفهم العبادة . ذلك أمر يحول بين الإسلام وبين رسالته الحقة التى يستمدها من ذاتيته المفردة الخاصة ، وإن اشترك مع الأديان الأخرى فى مقاومة المادية أو الإلحاد . إن محاولة « احتواء » الإسلام إنما تتمثل فى أساليب كثيرة منها هذه المحاولة التى يقدمها الاستشراق لفهم الإسلام ، على أنه دين عبادة وليس دين عمل ، وعلى أن القرآن كتاب كتبه محمد ، وهو ليس كذلك ، فهو الكتاب الوحيد الباقى على الأرض المنزل من السماء عن طريق الوحى والذى تكفل صاحب الدين بحفظه وبيانه، وهناك إلى جانب ذلك ، المفهوم الغربى المتضارب بين النبوة والألوهية وفى الإسلام هناك وضوح كفلق الصبح يحجز بين الألوهية والنبوة فلا يختلط الأمر فيها أبدا .

على شبابنا المسلم أن يفتح عينه جيدا ليرى،فلا يغرنه بريق الحرام، ولايغرنه **كثرة الخبيث ، وليعلم أن الحق دائما مع الجانب الأضعف والأقل ، وأن الباطل دائما وسيظل فى زهو واستعلاء ، خاصة فى هذا العصر الذى بلغت فيه الحضارة المادية الوثنية أقصى غاياتها كمقدمة لانحلالها ودمارها السريع .**

ولتعلم أن أصحاب الأهواء هم دائما قادرون على إعطاء ما يلمع وما يثير العاطفة ، ولكنهم لا يقدمون أبدا ما يسعد النفس ، أو يعطى الأمن ، وإنما الذى يعطى الأمن هم أهل الحق ، المتابعون لكتاب الله . ولسوف نجد مع هذه الأهواء البراقة أذى كثيرا ، سنجد تمزقا وقلقا وشكا ، ذلك لأنها تجافى الفطرة الإنسانية ، فإذا استطعنا بالإرادة والإيمان والخوف من سوء الجزاء أن نرد نفوسنا فسوف نجدنا على طريق الحق .

إن النفس الإنسانية تحب أهواءها وتظن أن فيها السعادة ، ولكن سعادة النفس الحقة إنما تتحرك فى دائرة الضوابط التى أقامها الإسلام حتى لا يقع صاحبها فريسة للهزيمة والدمار .

ولقد أعطى الإسلام المسلم كل مطامحه ورغباته المادية فى إطار من الحكمة والحماية حتى يظل قويا صامدا ، فلننظر إلى هذه البضاعة المزجاة المطروحة فى سوق الفكر نظرة أشد عمقا ، وعند ذلك نجدها بضاعة ضالة .

الإيمان بالغيب :

وسع الإسلام أفق المعرفة فجعله شاملا لعالمى الشهادة والغيب جميعا ، ولم يقصره على المرئيات وحدها ، **وجعل مصادر المعرفة فى عالم الشهادة :**

السمع والبصر والفكر ، وفى عالم الغيب : النبوة والوحى والوجدان .

ويجمع الإسلام بين الإيمان والمعرفة ، ولا يجعل من أحدهما مضادا للآخر ، ويرفض الإسلام الاقتصار على مفهوم المعرفة القائم على الحس والتجربة ، ويضيف إليه علم النبوة الذى جاء عن طريق الوحى وسجله القرآن ، وفيه تفصيل كل ما يتصل بعالم الغيب والجزاء والآخرة .

ومن هنا جعل الإسلام الإيمان بالغيب شرطا أساسيا من شروط الإسلام .

وأبرز مفاهيم الإسلام الوضوح الصادق ، حيث لا تأويل ولا غمغمة ، وحيث لا يحمل اللفظ أكثر مما يطيق ، أو يؤدى أكثر من معناه ، وحيث الحق حق والباطل باطل ، وليس بينهما شيء ، فلا يكون الشيء حقا ، وباطلا فى نفس الوقت .

ويقوم ذلك المنهج على أساس استعمال العقل المؤيد بالوحى ، وينطلق من خلال معالم أساسية وبديهيات قوامها أن الجزء أقل من الكل ، وأن المتضادين لا يجتمعان ، وأن الجسم الواحد لا يكون فى مكانين فى وقت واحد .

إن تأثير القرآن الكريم فى المسلمين لا ينقطع ، وفى العرب لا يتوقف ، لأنه مصدر المنهج الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والتربوى والقانونى لحياتهم الفردية

والاجتماعية ، ولا ريب أن تحرك الفكر الإسلامى إنما يجرى فى نطاق القرآن وإطاره ، فإذا خرج عنه وقع الحرج ، هذا الحرج لا يرتفع إلا إذا عاد المسلمون إلى التماس منهج القرآن . ولقد كان التأويل من أخطر الأسلحة التى استعملت لتفسير النصوص ، تفسيرا يخرجها عن مدلولاتها الأصلية إلى مدلولات ومفاهيم متحرفة ، ولقد حذر القرآن من هذا الخطر ، وأولى الرسول صلى الله عليه وسلم اهتماما كبيرا لهذا الأمر ، حتى لا يقع المسلمون فى محاذير تخرجهم من أصول دينهم الجامعة الواضحة .

وهناك محاولة زائفة لهدم قدسية النص الإسلامى القائم على القرآن والسنة بالفصل بين الأدب والفكر ، وبين العروبة والإسلام ، وبين الدين والمجتمع ، وبين الشريعة والأخلاق ، وبين العبادة والدولة ، وهو فصل عسير ؛ لأنه يرمى إلى تدمير أعظم قوى الإسلام ، وهى التكامل الجامع الذى يربط بين القيم ، ويجعلها من قوة واحدة .

الْقُرْآنُ وَحيٌ إلهِيٌّ

ليس الوحى انطباعا فى نفس محمد صلى الله عليه وسلم .

فهناك فارق عميق وواضح بين نظم القرآن وكلام سيدنا محمد ، فلنحذر خطأ القول بأن القرآن فيض من العقل الباطن ، وليس وحيا إلهيا ، حتى ليقول بعضهم : أليس الأفضل الإشادة بعبقرية محمد وألمعيته وصفاء نفسه بنسبة القرآن إليه ، ومن الحق أن يقال إن الله قد أشاد بنبيه بما لا تستطيع البشرية كلها أن تصفه به ، ولكن مع المفهوم الصحيح :

﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يُوحَى إلىَّ﴾ سورة الكهف .

إن الهدف هو قطع الصلة بين المسلمين والقرآن ، فإنه إن كان القرآن كلام محمد فهو من عمل البشر ، ومن هنا يفقد معناه الأسمى ، وينتهى أمر الإجماع عليه ، لقد كان محمد أميا لا يقرأ ، ولا يكتب ، فمن الذى أطلعه على أن ما فى القرآن مصدق لما فى التوراة ، حتى يتحدى به اليهود ؟ لقد كان علمه بشئون قومه لا يزيد على علم غيره ، فمن الذى أطلعه على قصص الأولين ؟ .

إن من أبرز شبهات الاستشراق الغربى اليوم حجب مفهوم الوحى والنبوة ، ومحاولة تصوير الرسول الكريم على أنه مصلح عظيم استوعب فكر عصره ، وذلك وهم باطل يساير المفهوم المادى الذى يقصر عن فهم تلك المعجزة الكبرى التى حققت قيام دولة الإسلام الكبرى .

الاستعصام بالقرآن :

إن أمة شكلت وفق منهج القرآن الربانى وصيغت عليه قرونها طويلة ، من العسير عليها أن تلتمس منهجا آخر قد كونته أمم أخرى يختلف مع عقيدتها ، ويتباين مع مقومات حياتها ، ذلك أنه من خلال هذه المناهج الوافدة يتوزع فكر الأمة ، ويختلف هديها ، وتضيع أكبر مقومات القوة والصمود : وهى وحدة الفكر التى هى مقدمة الوحدة الكبرى للأمة كلها .

ومن هنا كانت ضرورة الحذر من مدارس الإرساليات ومعاهدها وجامعاتها ، والحذر من مناهجها فى التربية والتعليم التى تسرب السموم إلى الصحافة والثقافة العامة ، وإن مفهوم التحرر من التقليد الأجنبى يعنى بالضرورة

صحيح ما دسته الشعوبية ، ودسه التغريب حول الإسلام والقرآن واللغة العربية والشريعة الإسلامية من شبهات وسموم ، وتنقية المفاهيم والقيم من الشوائب والأخطاء ، **ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاستعصام بالقرآن ، فهو المصدر الأول والأكبر لحل جميع المتناقضات ، وهو العامل الأقوى لإمداد الفكر والأمة معا بالأصول الأصيلة والحلول الصادقة التى تعصم حياة المسلمين من الاضطراب والتمزق . ولا سبيل إلى إقامة وحدة فكر إلا بتوحيد مصادر التربية والتعليم . إن وحدة التعليم هى أساس وحدة الفكر والثقافة جميعا .**

خطران يواجهان الشباب المثقف : وكلاهما مر .

أما أحدهما : فهو كتب موضوعة ومكذوبة .

وثانيهما : كتب الوجودية والجنس والأدب المكشوف .

وأبلغ الخطر هو محاولة بعض المستشرقين ودعاة التغريب اعتماد مثل هذه الكتب التى ألفت فى فترة الضعف والتخلف كمصادر لدراسة الإسلام ، أو المجتمع الإسلامى ، أو الاستشهاد بكتب المحاضرات والفكاهات .

أما كتب « الأصول » التى ألفت فى العصور الأولى وحملت لواء الفكر الإسلامى الأصيل فقد حاول بعض أعداء الإسلام وصفها بالكتب الصفراء حتى يعزف عنها الناشئة والمثقفون .

إن نظرة صحيحة إلى القرآن الكريم تكفى فى هداية المسلمين إلى التراث الأصيل ، والتفرقة بينه وبين التراث الذى وضعته عصور التخلف والضعف .

وهذا هو الطريق الوحيد إلى تحرر النفس العربية والعقل العربى من جميع أخطار الزيف .

دعوة كاذبة :

ليس تخلف المسلمين مرده إلى الإسلام إلا من حيث هو انحراف من المسلمين عن أصول الإسلام ، أما الإسلام فى حقيقته فهو مصدر تقدم المسلمين ونهضتهم وحضارتهم التى اتسعت آفاقها حتى شملت العالم كله ، وإن محاولة أعداء

الإسلام القول بأن التخلف فى عالم الإسلام يعود إلى الإسلام – إنما هو قول يكذبه التاريخ نفسه ، وتزرى به نصاعة أصول الإسلام وحقائقه فى إيجابيتها ، وارتباطها بالفطرة ومرونتها وتقبل العقل لها . ولقد كان الإسلام قادرا على إعطاء المسلمين القوة التى تمكنهم من مراجعة أنفسهم ، وتعرف أسباب ضعفهم ، والتماس عوامل اليقظة من المصادر الأصيلة لفكرهم ، وقد كان جوهر الإسلام فى بساطته ويسره وشموله وتكامله من أكبر عوامل اليقظة فى المراحل التاريخية المختلفة ، وأداة النصر فى الأزمات والمواقف الحاسمة .

ومازال الإسلام قادرا على العطاء لمن يلتمس منهجه وطريقه وسوف يظل المسلمون فى حيرة ما تجاوزوا منهجه وماتنكبوا طريقه ، إن القضية اليوم ليست فى أن يعلم المسلم عقيدته ، أو يكتشف أسباب ضعفه فهو يعلم ذلك جيدا ، وإنما القضية اليوم هى بناء الإرادة القادرة على العمل ، حتى تسترد العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعى .

لا فائدة من علم بلا عمل :

من أهم مميزات منهج الإسلام في المعرفة : التفرقة بين المعارف الجوهرية ، والمعارف غير الجوهرية التى ليس لها قيمة إلا أن تكون للزينة ، أو لغو الحديث .

وفرق الإسلام بين العلم النافع ، والعلم الزائد عن الحاجة ، ودعا المسلمين إلى أن يأخذوا من كل علم بما هو نافع ، وأن يستمعوا القول ، فيتبعوا أحسنه ، وأعلن الرسول أن العلم كثير ، فخذوا من كل شيء أحسنه ، وهو لذلك إنما يركز على أهمية الاجتهاد ، ورفض التقليد ، والبحث عن البرهان ، وقبول الدليل ، وتغيير الرأى دون حرج متى تبين أن غيره أصح منه .

لقد ربط الإسلام بين العقيدة والتطبيق ، وقرن العلم بالعمل ، ورفض مبدأ العلم لذاته ، وقرر أن العلم إنما يطلب من أجل العمل به والإفادة منه فى تحسين الحياة وتقدمها ، وكشف عن أن الطبيعة البشرية مزودة بقدرتين : قدرة نظرية تقوم على تحصيل العلم ، وقدرة عملية تقوم على تعريف العمل ، ولابد أن يمتزجا ويتكاملا ، ولا ريب أن فقد القدرة العملية يعوق التقدم الإنسانى ، ويحول دون تحقيق نماء المجتمع .

حَتميةُ تَعْرِيب ٱلعُلُومِ وَٱلتكْنُولُوجيا

أحمد بن حنبل والفلسفة اليونانية :

حينما نعاود بالنظرة السريعة موقف الإمام أحمد بن حنبل ، وصموده فى وجه الفلسفة اليونانية نجده رائدا مازال عصرنا فى حاجة إلى الالتقاء به واتباعه ، فقد وقف فى إصرار أمام الفتنة خلال سبعة عشر عاما ، لا يتردد ولا يتراجع ، وهو ينتقل من سجن إلى تعذيب إلى امتحان بعد امتحان دون أن يثنيه ذلك شيئا عن كلمة حق يرددها : « أعطونى شيئا من كتاب الله وسنة رسوله » .

لقد وقف سدا منيعا فى وجه الخطر الذى كادت تزلق فيه الأمة إلى الوثنية الفلسفية التى كانت تيارا عاصفا كاسحا ، يريد أن يقطع صلة هذه الأمة بالإسلام ، ومحمد والقرآن ، وصهره فى بوتقة التغريب والشعوبية الضالة المضلة .

يقول أحد أصحابه : إنما أنت تقتل نفسك .

فيقول له : اخرج فانظر ، فيخرج فيجد الجموع تقف فى الساحة وفى يدها الأقلام والأوراق ، تريد أن تكتب ما يقول أحمد بن حنبل ، فيرجع فيقص عليه فيقول ابن حنبل :

هل أغش هؤلاء جميعا وأخدعهم ؟ ليس إلى ذلك سبيل ، ولقد كشف الله الغمة وانجابت المحنة ، ورفع ذلك القول الذى ليس له سند من كتاب ولا سنة ، وعادت رايات النصر والظفر تحلق فوق رأس أحمد بن حنبل ، فما زاده ذلك إلا تواضعا ولا غيره عن طريق اتخذه ، ولا ازدهى ولا طمع فى شىء مما قدم له ؛ ذلك لأن أحمد بن حنبل كان قد شكل نفسه على نحو من الزهادة والصبر والصمود، مما مكن كيانه الإنسانى الواحد من أن يحمل جهد عشرات الرجال الذين تهزهم أقل الصدمات فتنهار قواهم .

الإسلام ومسئولية التناصح :

من أبرز مسئوليات الإسلام مسئولية التناصح : التواصى بالحق والصبر والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، (وهو حق كل مسلم على كل مسلم) ، وهى دعوة لا تجد لها اليوم نصيرا ، فقد حاولت الخطط التغريبية أن تصور الناس أحرارا فيما يأخذون ، وفيما يدعون ، لباسا وكلاما وزينة وتصرفا ، ودعا أصحاب المذاهب

الاجتماعية إلى ترك الشباب والأبناء دون توجيه ، وحاولوا الوقيعة بين الآباء والأبناء ، فنشأت أجيال تكره الكلمة النافعة وتعتبرها قيدا ووصاية ، وقد كان الأولى أن يأخذ المسلمون بأسباب الإسلام وأساليبه فى التربية ، فيقيمون بينهم وبين أبنائهم ، والأجيال الجديدة صداقة وودا يجعل الرابطة الفكرية والثقافية والوجدانية قائمة ومتصلة دون تحديات ، أو عقد .

لابد أن تفتح اللغة العربية أبوابها لاستقبال العلوم والتكنولوجيا بمختلف فروعها وأنواعها، وهذا شرط أساسىّ لقيام نهضة حقيقية ، فلابد أن تنصهر هذه العلوم فى بوتقة اللغة التى هى فكر الأمة ووعاء ذوقها وثقافتها ، ذلك أن مفهوم المسلمين للعلم ، وتطبيقه جد مختلف عن مفهوم الغرب ، فنحن نؤمن بأن العلم للإنسانية كلها ، ولذلك فنحن نحوطه بالقيم الأخلاقية ، ونجريه فى دائرة التقوى الإسلامية ، فلا يكون إلا سلاما وأمنا وسعادة ونورا للبشرية كلها .

ومن أبرز الأخطاء أن نفصل بين اللغة والفكر ، أو أن نفصل بين اللغة العربية بوصفها لغة أمة وبينها كلغة فكر وعقيدة وثقافة لأكثر من سبعمائة مليون مسلم ، وإن ما تورده علوم اللغات لا ينطبق على اللغة العربية لذاتيتها الخاصة التى أعطاها القرآن ، فلم تعد بها لغة قوم لهم حق التصرف فيها .

وهناك دعوة ضارة إلى مهاجمة الفصاحة العربية والخطابة والشعر العربى فى محاولة ترمى إلى إحياء العاميات ، وطبعها بطوابع التراث ، وهى دعوة تستهدف غرضا خبيثا يهدف إلى فصل المسلمين عن مستوى بيان القرآن ، ويعمل على زلزلة وحدة الفكر الجامعة التى تضم المسلمين والعرب من خلال الفكر الإسلامى ذى التراث العتيد ، والميراث الأصيل إن أخطر الأخطار التى تواجه المسلمين والعرب اليوم هو تحركهم فى مواجهة العدو من داخل دائرة الفكر الذى رسمه التبشير والاستشراق والتغريب ، والذى يقسرهم الاستعمار على التحرك فيه .

إن النصر على تحديات العدو هو مواجهته بمفاهيم ، وقيم مستمدة من أصالة الإسلام ، ومفهوم القرآن .

إن النصر الذى كسبه المسلمون فى « حطين » فى مواجهة الصليبيين إنما كان مصدره الأول أنهم تحركوا من خلال قيمهم ومفاهيمهم . إن أخطر ما منى به

المسلمون فى العصر الحديث أنهم انسحبوا من قاعدتين كبيرتين وحصنين عظيمين : هما الجهاد ، والشريعة الإسلامية .

لأن للمسلمين والعرب مثلا أعلى يستمد وحيه من روح الله ، إن قانون المعركة الفاصلة بين المسلمين وأعوانهم لا يقوم على القلة والكثرة ، وإنما يقوم على الثبات ، وذكر الله مع التماس كل أسباب النصر ، ووسائله المادية المتاحة .

وإن تجربة العاشر من رمضان هى تجديد لمفهوم الإسلام فى مواجهة العدو .

أَثَر العَرَب فِى حَضَارةِ ٱلغَرْب

إن هناك حقيقة يحاول الفكر الغربي أن ينكرها ، أو يتجاهلها ، أو يقلل من قدرها ، وهي حقيقة هامة لأنها ذات أثر نفسي بالغ ، فضلا عن أثرها التاريخي البارز ، تلك هي أن المسلمين هم الذين وضعوا المنهج العلمي التجريبي الذي تقوم عليه الحضارة الحديثة ، وأن المسلمين لم يقبلوا المنهج النظري اليوناني ؛ لأنه كان منهج حضارة عبودية يختلف عن مفاهيمهم وقيمهم ، ولذلك فقد تحركوا من خلال القرآن إلى إنشاء منهج جديد هو المنهج التجريبي ، وقد شهد بذلك (بريفولت) و(درابر) و(بيكون) ، وغيرهم من كبار أعلام الفكر الغربي

وأعلن أكثر من باحث أن المسلمين سبقوا في معطيات كثيرة مفكري الغرب ، سواء في مجال الاجتماع ، أو الاقتصاد ، أو التطور ، أو السياسة . سبق ابن خلدون كلا من (سميث) و(هيجل) ، كما سبق المعرى (دانتي) وسبق ابن مسكويه (دارون) وسبق الطرطوشي ميكافيلي في فكرته وميدانه ، ولقد ظل الغرب ينكر أثر المسلمين في حضارة الغرب أكثر من ثلاثمائة سنة حتى جاء من كشف عن أثر العرب في كل العلوم التجريبية والكيمائية والطبيعية ، فضلا عن الطب والفلك ، ولم يجد الغربيون أمامهم بدا من الاعتراف بعد أن قال عالمهم الكبير : إن ابن الهيثم من أعظم علماء البشرية على الإطلاق واعترف نابغهم أن ابن خلدون أول من وضع أسس الاجتماع وفلسفة التاريخ .

الكاتب الصادق ومصدر قوته :

إنما أوتينا من قبل الكتب اللامعة والأسماء البراقة ، فلنكن على حذر منهما ، إن نصاعة تاريخ الكاتب وصدق انتمائه إلى أمته وفكرها هو مفتاح الثقة به ، لنكن على إيمان كامل بأن الكاتب الصادق يستمد قوته من الحق ، ويستمد مظهره من تراث الأنبياء ، والأئمة الأبرار ، ويكون في دعوته وهدفه وكتاباته مطابقا لتوجيه القرآن﴿ لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ سورة آل عمران .

ولا يشترون به ثمنا قليلا ، وهو لا يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، ولا يكون أبدا أداة لتزييف الحق، أو تضليل الناس ، أو إعلاء شأن الأهواء ، أو خداع القارىء بالعناوين البراقة والكلمات اللامعة : كالفكر الحر ، والانطلاق ، ونسبية الأخلاق ، وحتمية التطور !! وأول علامات الصحة في

حكمنا : أن نحاكم الفكر نفسه بالإخلاص والإيمان وأن الكتاب المقدورين لدينا ، الأثيرين عنا ، لنأخذ منهم ونتلقى عنهم : هم الذين عرفوا بنصاعة الصفحة ، وسلامة الفطرة ، والولاء للخير ، خير هذه الأمة وفكرها وقيمها الأساسية .

إن من أكبر الخطأ : قول القائل « قلب عربى وعقل أوربى » ذلك أننا فى الحق نؤمن بقلب عربى إسلامى وعقل عربى إسلامى أيضا ، لا تفرقة بين العقل والقلب ، ولا سبيل لأن يسير أحدهما فى نهج مخالف للآخر ، ولابد أن ينسجما معا فى طريق : هو طريق التوحيد والإيمان والأخلاق على النحو الذى رسمه القرآن وقام عليه الإسلام .

فإن كان المقصود بالعقل الأوربى : علوم الغرب الحديثة فإننا حين نأخذها إنما نأخذها بالعقل العربى الإسلامى ومن خلال دائرة فكرنا الأصيل ذى الجذور العميقة لئلا تتحول أمام أى ظاهرة مستحدثة لتخرج به عن مقوماته ، والذى شارك قديما فى صناعة العلم ، وأنشأ المنهج العلمى التجريبى .

إننا فى الحق لا نحتاج من الغرب إلا للعلم وهو نتاج شاركنا فيه ، وكان لنا دور عميق فى إنشائه وبنائه ، ولا نأخذه إلا بمفاهيمنا الجامعة بين الإيمان بالعلم طريقا إلى الخير والحق والعدل ، وخالصا لله تعالى .

أما القلب العربى فلن يكون قلبا حقيقة إلا إذا كان إسلاميا وعربيا معا ، فيه المروءة العربية تتحرك فى ضوء الخلق الإسلامى ودوافعه ومراميه .

تحديات ثلاثة خطيرة واجهت المسلمين فى العصر الحديث :

(**أولا**) التحدى المنبعث من واقع المسلمين الفكرى ، وقد بدأت أول صيحة فى حركة اليقظة الإسلامية المعاصرة على يدى الإمام محمد بن عبد الوهاب وكانت منطلق مختلف الأعمال التى قام بها المصلحون من بعده وحتى اليوم .

(**ثانيا**) التحدى المنبعث من داخل المجتمع الإسلامى نتيجة الاحتلال ، ويتمثل فى الشعوبية ونفوذ التبشير ومدارس الإرساليات و مناهج التربية والتعليم التى أخرجت الإسلام من العقل والقلب المسلم ، وفتحت أمامه طريقا واسعا لتقبل كل الأوهام والأهواء .

(**ثالثا**) التحدى الخارجى ، ويتمثل فى التغريب ومناهجه ودعوته ومن ورائه الاستشراق ، ليملأ الفراغ الذى تركته مخططات الاستعمار فى تفريغ التربية والتعليم فى العالم الإسلامى ، وقد تظاهرت الحركتان الاستشراقية والتبشيرية على هذا العمل .

التشاؤم طابع غربى :

إن طابع التشاؤم الذى يسود الأدب الحديث هو طابع غربى محض ، وهو دخيل على الأدب العربى والفكر الإسلامى ، ويرجع التشاؤم فى الفكر الغربى والأدب الغربى إلى عدم الاقتناع العقلى بوراثة البشر جميعا لما يطلق عليه اسم الخطيئة الأصلية ، لقد ساد الوجدان المتشائم فى الغرب نتيجة لهذه القضية ، وظهرت آثاره القوية على الآداب والفنون والفلسفة والأخلاق .

وفى ظل هذا الاتجاه السوداوى المتشائم ينتشر على أوسع نطاق فى عالم الغرب أفكار عن (لا معقولية الحياة) ، و (عبث الوجود) حتى أصبح المفكرون المتشائمون يشنون هجمات هستيرية على كل فكر معارض .

ويرى الباحثون اليوم أن (الوجودية) هى أعلى أطوار فلسفة التشاؤم ، ويرد البعض ذلك إلى الماكينة التى انقلبت على صانعها الإنسان وأصبحت وحشا مدمرا يحاول أن يقضى على عقله وقلبه ويحيله إلى أداة طيعة له .

يقول باسبرز : إن التقدم العلمى الذى يعد صعودا بالنسبة للبشرية من حيث هى بشرية هو هبوط وانتكاس لأخلاقيات الإنسان .

أهلُ الله

إن أهل الله لا يشغلهم جهاد العدو عن جهاد النفس ، ولا جهاد النفس عن جهاد العدو ، فهم لا يلوذون بشغاف الجبال ؛ ليقفوا عن مجاهدة نفوسهم ، ولكنهم يندفعون فى غمار القوم يجاهدون بالكلمة ، ويقولون مع الأول : فناء الصوفى فى الله وفنائى فى خلق الله . وهم يرون أن الإسلام لا يكمل مفهومه إلا بمجاهدة النفس مع الخلق فى العمل والمعاملة ، وهم يندفعون إلى القتال ، وقد باعوا أرواحهم مؤمنين بأن طلب الموت هو أقرب طريق لأن توهب لهم الحياة . **إن أهل الله لا ينسلخون من الجماعة ، وإنما ينسلخون عن مطامع الجماعة ورغائبها . فهم يعبدون الله بالاقتحام فى الحياة والعمل ، والتعمير وفق المنهج الربانى ، للوصول إلى عزة المؤمن الذى يقيم المجتمع الصالح المتحرر من الأهواء والأوهام والمطامع .**

إن الالتزام الأساسى للسائرين إلى الله ليس هجرة الدنيا ولا عزلة عنها ، ولكنه تجرد عن الأهواء ، واستعلاء على الآثام . إن تسليم الأمور لله وإخلاصها له لا ينفى إرادة الإنسان ومسئوليته عن عمله ، والإيمان بالجزاء الأخروى ، فهو ليس تسليما من نوع الجبرية الضالة ، ولا انكارا للإرادة جريا وراء الأهواء .

إنما الصلاة والإيمان إعداد للمسلم لأن يكون أهلا للحياة فى العالم الآخر وصولا إلى الجنة ، وإن لأداء الصلوات فى أوقات معينة كلمة عليا لها ارتباط بالزمن وتقدير لله وفضله ، وإن فى الزام المسلم بأداء الصلاة فى هذه الأوقات سِراً يتصل بارتقائه الروحى والنفسى بحيث نعده لأن يكون مؤهلا للحياة فى الجنة ، **فآيات الله وعبادته من شأنها أن ترفع الإنسان إلى المقام الذى يحقق له الربانية ، بينما انصراف الإنسان عن ذكر الله وعبادته هو بمثابة إخلاء إلى الله وقصور عن الارتفاع فوق الأهواء والمطامع ، بما يحجب الإنسان عن المنزلة التى تؤهله للفوز فى الآخرة .**

ولا ريب أن هدف الحضارة الأول ، ومطمع الإنسان الأكبر : هو طمأنينة النفس وسكينة القلب ، وهو هدف تعجز عنه الحضارة ، ولكنه متحقق فى عبادة الله والإيمان به ، ولا ريب أن كرامة الإنسان هى فى إحساسه بأنه مرتفع فوق مطالب البدن ، وضرورات الغرائز ، وأن كل معطيات الله له موجهة لله ، وفى سبيل الله ، هذا هو المعنى الأعلى الذى يتطلع إليه الإنسان ليكون أهلا للجائزة .

الْفِكرُ الإِسلاميُّ يواجِهُ التَّحَدِّياتِ

مازلنا فى مد النفوذ الغربى « استعمارا وحضارة » وكل المحاولات للتخلص من هذا النفوذ ، أو التخفيف من آثاره ما تزال غير قادرة على إيقاف موجة المد المتعالية ، بل يمكن القول : إن الموجة الآن فى أعلى ذراها وفى أسوأ مراحلها ، بالنسبة للعالم الإسلامى الذى انضغط بين حجر الرحا المتمثل فى الصراع الغربى الصهيونى المادى وكان العالم الإسلامى هو هدف الغزو لأمرين :

(أولا) حتى يستغل الغرب كل مقدرات العالم الإسلامى ويبنى بها دولة الرفاهية .

(ثانيا) حتى لا يقف هذا العالم مرة أخرى على قدميه فى مواجهة الغرب ومن هنا عمد الغرب إلى تمزيق الخلية الواحدة ، والحيلولة دون عودتها مرة أخرى إلى وحدتها .

ولقد استطاع الفكر الإسلامى بأصالته وقدرته على الدفاع عن قيمه أن يواجه هذه الموجة بضربات أبرزها حركة تصحيح المفاهيم ، وإعلان تكامل الفكر الإسلامى بمختلف عناصره وفساد النظرية التى تريد أن تعيده إلى عصور الضعف والتخلف . وما زالت هذه الموجة فى حاجة إلى المواجهة الدائبة للوقوف فى وجه الشبهات المثارة بالعمل دوما على تصحيح المفاهيم ، وكشف الزيوف ، وشجب المؤامرات ، ودحض الشبهات .

إن من يتدبر الآية الكريمة : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ﴾ يعرف بجلاء أن المسلمين اليوم ـ على ماهم عليه ـ لابد أن يمروا بمجاهدة كبيرة حتى يصبحوا على مستوى الإيمان والكفاية لمواجهة الخطر الذى يتهددهم ، وذلك أن تنازلات كثيرة قد سلم بها المسلمون فى الماضى حتى وصلوا إلى هذا الموقف الخطير ، ولابد أن يستعيدوا أمرهم بالتماس المنابع الأصلية لفكرهم وعقائدهم . وسوف يصبحون على مستوى القدرة والمسئولية فى وقت قصير ، أما إذا فتح الله لهم هذا الباب من أبواب الضياء والنور ، وعرفوا أنهم إنما يدورون الآن داخل دائرة المفاهيم الوافدة التى فرضت عليهم ، اذن لابد لهم من الاندفاع بقوة للخروج من دائرة التغريب ، والالتقاء فى دائرة الأصالة ، فإن مفاهيم الإسلام وقيمه هى وحدها التى

تفتح الطريق إلى النصر ، وتدفع المسلمين إلى تبين الضوء الكاشف والسبيل **تمثل الصحيح. إن عباد الله أولى البأس الشديد الذين سيحققون سنة الله فى الكون التى لا تتخلف هم أولئك الذين يعتصمون بالقرآن ، ويستمدون منه هديهم وعقائدهم ، وقد أصبح هذا الفهم مقررا اليوم فى العقول ، ويجب أن يكون قد أصبح الطريق الوحيد الذى لا طريق غيره .**

إن أول الجهاد الدفاع عن روح الإسلام فى ارضه ووطنه ذلك أن روح الإسلام إذا ضعفت فى المسلمين فقد برئوا من رحمة الله ورضوانه فقد أخذ عليهم العهد بأن يحملوا الرسالة ، ويبلغوها للناس ، ويصححوا المفاهيم ، ويكشفوا الزيف يوما بعد يوم ، وعلى الباحثين أخذ العهد بأن يبينوا للناس ولا يكتموا . من أجل أن يتغلغل هذا الحب لشيء نجهله ، ولابد من استكشاف الطريق الذى يحمل الآن عثرات كثيرة . إن أهم ما فى الإسلام هو « التكليف » : هو ذروة الحياة وأساسها فإذا جاء من يريد إسقاط التكليف فهو إنما يريد إخراجنا من المسئولية الفردية . إن حق الله علينا التواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، إن المسلم مطالب بأن يفهم أمره أولا ، ثم له إرادته الحرة والتزامه الأخلاق وعليه جزاؤه الدنيوى والأخروى .

الشخصية المسلمة والقيم :

إن هناك محاولة لحمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب ، والخروج من ذهنيتهم ، وهناك شبهات وأهواء تحاول أن تشوه تاريخهم ومبادئهم وثقافتهم وانتقاص الدور الذى قاموا به فى تاريخ البشرية ، وذلك فى محاولة لخلق شعور بالنقص فى نفوس المسلمين .

والواقع أن الغرب قد نقل علومنا فى الماضى دون أن يعتنق ديننا ، أو ثقافتنا ذلك أن هناك أمورا مشتركة عالمية كالعلم والمعرفة وأن هناك أمورا خاصة بكل أمة مطبوعة بطابعها هى الثقافة والأخلاق والآداب والأذواق ، وللعرب خلقهم وثقافتهم وآدابهم النابعة من دينهم وفكرهم وذاتيتهم ، وهى القيم التى قادتهم فى الحياة خلال هذا المدى الطويل وحققت لهم النصر والتمكين فى الأرض والقوة والمهابة فى نظر غيرهم ، لذا فإن التخلى عن هذه القيم من شأنه أن يهدم

شخصيتهم ، وأن يجعلهم مجردين من طابع أصيل ، أو شخصية واضحة بين الأمم . ولقد تختلط الطوابع بين الانجليز والفرنسيين ، والألمان والأمريكان، لأن هناك جامعا يجمعهم من أصول دين وثقافة ولكن من العسير أن تختلط طوابع المسلمين والعرب مع الغرب وقد تشكلت هذه الطوابع بمعزل عن هذه الأمم وانطلقت من منطلقات مختلفة ، بل ومتباينة أحيانا ، وان كان يجمعها جامع وحدة البشرية الواسع الكبير .

الإسلام بين الفلاسفة وعلماء الكلام :

يؤخذ الإسلام من أصوله ، وليس من كلام الفلاسفة ، أو علماء الكلام ، أو غيرهم وليس من طبيعة الدراسة الصحيحة أن نفصل بين جماعة من هذه الجماعات ؛ لنقول : إنها تمثل وحدها الفكر الإسلامى ، فلا المعتزلة ، ولا أهل الكلام ، ولا الفلاسفة ، ولا المتصوفة ، ولا الفقهاء ، وكل منفصل ، يمثل الإسلام وإنما الإسلام الصحيح هو ما جاء فى القرآن ، وإن حركة هذا الفكر كلها قد جرت فى سبيل استيعاب ما صلح من الثقافات الغربية وصهرها فى إطار الإسلام وبوتقته ، ولقد كانت هناك قوى تحاول أن تلتمس من هذه المذاهب سبيلا وقد ذهبت ، وبقيت هذه المساجلات . فنظرتنا إليها اليوم يجب أن تكون على أنها مراحل داخل حركة الفكر الإسلامى توصلا إلى المفهوم الجامع الأصيل فإذا جاء من يقول لنا : إن الإسلام عقلانى استمدادا من نصوص المعتزلة قلنا له : إن هذا ليس صحيحا وإذا جاء من يقول إن الإسلام فلسفى ، أو صوفى ، أو غير ذلك قلنا له : مثل ذلك ، ونحن نعرف ولع المستشرقين بالاعتزال والفلسفة ونعرف أنهم يحاولون تجديد هذا الدعوات الآن لتمزيق وحدة المسلمين ، والتأثير على أصالة فكرهم ، فالفكر الإسلامى لم يتأثر بالفكر اليونانى وإنما أقام منهجه الأصيل المتحرر من كل تبعية ، وعرض عليه كل ما جاء من الخارج فأخذ منه وترك على قاعدته الأصيلة : « التوحيد » وفى هذا العصر لن يستطيع الفكر الغربى أن يسيطر على الفكر الإسلامى فإن التجربة حاضرة ، والمفكرون المسلمون يقظون لمحاولات التغريب كاشفون لزيفها أولا بأول .

العلم والأخلاق وبناء الحضارة :

ما يزال مفهوم الإسلام فى الالتزام الأخلاقى هو المظلة الواقية التى جنبت القيم الإنسانية التمزق والتجزئة والانشطار .

هذا المفهوم القادر على أن يحمى البشرية من براثن التخبط والضياع التى وقعت بالفعل فريسة لها نتيجة لعزله بين العلم والأخلاق ، فقد غاب عن بال الغرب أن العلم والأخلاق وجهان متلازمان بالضرورة للبناء الحضارى ؛ ذلك لأن العلم من غير أخلاقياته من شأنه أن يفتح الباب نحو الشر والباطل والظلم والاستعلاء والإرادة الإنسانية هى مناط المسئولية والجزاء ، ولقد دعا الإسلام إلى تربية الإرادة حتى يكون الإنسان قادرا على كبح الشهوات ومعارضة اتجاه الأهواء ، وقد رسم الإسلام ضوابط الإرادة ودعا إلى العناية بها فالإنسان مسئول عن عمله ، له ما كسب ، وعليه ما اكتسب ، وقد فرق الإسلام بين التوكل على الله مع العمل ، وبين التواكل ، فالمسلم يتوكل على الله ويكافح ، وهو مؤمن بقضاء الله أولا ، وإن له ثمرة عمله ، وعليه أن يستعين بالنظام والمبادرة والتماس سنن الله فى الحياة .

الإسلام هو الدين الأول :

الإسلام كما نص القرآن ليس بدين جديد ، ولكنه الدين الأول الذى أوحاه الله إلى الأنبياء ، جاء محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ليصحح الخطأ الذى طرأ على الدين الحق ، وليكشف التحريف الذى أصاب الدين الذى هو الإسلام : رسالة الله إلى البشرية منذ نوح عليه السلام .

ولذلك فقد جاء الإسلام وهو دعوة اللّه المتجددة لإقامة منهج اللّه فى الأرض من جديد ، ومن هنا فقد قطع الإسلام الامتداد الفكرى والثقافى بين ما قبل الإسلام ، وما بعده ، قطعه عن العرب أولا ، ثم قطعة عن كل الأمم والأقطار التى امتد اليها ، فلم يلبث الإسلام بعد زمن قليل أن قطع امتداد الوثنية عن العالم كله ، وألغى امتداد العبودية عن كل الأمم .

ومنذ جاء الإسلام كان فرقانا بين الفكر الربانى المصدر ، وبين الفكر البشرى ، فالفكر الربانى المصدر انسانى الطابع قائم على الحق والخير والرحمة والأخوة الإنسانية ، والفكر البشرى قائم على الأهواء والمطامع والظلم والعدوان .

وما تزال البشرية تتأرجح بين الفكر الربانى والبشرى حتى تعرف أنه ليس لها إلا طريق واحد هو طريق الله :﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ سورة الأنعام .

قمة الدين :

إن المجاهدة بمعنى معارضة الأهواء والمطامع ، والكظم بمعنى تأجيل الرغبة هو قمة الدين وهو لا يقع تحت المخاطر الوهمية التى أذاعها (فرويد) عن الكبت إنما يستمد معناه من إنكار الرغبات أساسا ، واحتقارها وعدم الاعتراف بها ، وهذا ما لا يدخل مطلقا فى إطار الإسلام الذى يقوم على أساس الاعتراف بالرغبات النفسية والحسية اعترافا كاملا دون إنكار لها ، إلى أن تحقق القدرة المادية . إن خطر الكبت الذى يعتقد الفرويدية إنه يؤدى إلى العصاب ليس هو تأجيل الرغبات ، ولكن هو إنكارها واحتقارها على النحو الذى يعرفه مجتمع الغرب نتيجة بعض التفسيرات الدينية ، أما الاعتراف مع التأصيل فذلك مما تقبله الطبيعة البشرية دون أن تضاربه . ولقد هللت طويلا دعوات التربية الحديثة بأن توجيه الأطفال ، وتأديبهم يؤدى إلى كيت وكيت ، من الأمراض ، ثم أثبتت التجارب التى أجريت بالإحصاء أن ذلك محض وهم وأن النفس البشرية قابلة للتوجيه والتحذير والعقوبة دون أن يحدث ذلك عندها ما يسمى بمركبات النقص . وهى الحامى لها ، وإن مارسمه من مناهج وأساليب تحذير وترغيب وترهيب إنما هو دواؤها وإنه متقبل منها وليس بشاق ولا خطير ، ليس له ضرر ما على النحو الذى تهول له الفلسفات المادية .

الإسلام كيان قادر على الحياة :

لا ريب أن المفهوم الإسلامى قد تكامل تكاملا كليا قبل أن ينتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وقبل الاتصال بالفلسفة اليونانية بوقت

طويل . وإن فهم الإسلام فهما صحيحا عميقا قد أعطى الجماعة الإسلامية شحنة من القوة والإيمان وإقامة الدولة .

وإن الإسلام حين أصابته الأحداث وفى ظل أخطار الصليبية والتتار والفرنجة ، أضاف إلى معتنقيه أضعاف أصحابه الأصليين .

ولقد كان من أبرز قوانين الإسلام قدرته الفائقة على تجديد نفسه من الداخل ، وعلى إعادة صياغة فكره كلما انحرف هذا الفكر ، أو أصابته دخائل تحوله عن جوهره ، وإنه كان دائما كيانا حيا قادرا على الحياة والتجدد ، قادرا على الأخذ والعطاء ، قادرا على التوسع والتكيف مع المجتمعات والعصور .

ومنذ ظهور الإسلام وكل حدث فى العالم ارتبط به على نحو من الأنحاء ، ومنذ أن انتشر الإسلام إلى اليوم لم يتغلب عليه متغلب وإن تغلبت على أمته شدائد الأمم .

قاعدة الثبات وعنصر الحركة :

يوائم الإسلام بين روح الأمة وروح العصر، فلا يجعل روح العصر حكما على الناس حتى لا يذهبوا مع أهواء العصر كل مذهب ، وينفصلوا عن قيمهم الأساسية ودينهم الذى هو عصمة أمرهم ، ذلك أن روح الأمة هى قاعدة « الثبات » وأن روح العصر هى « عنصر « الحركة . وإذا كانت روح العصر هى مجموعة من التقاليد والأساليب التى تجارى التقدم والتطور والحركة فإنها ليست منفصلة ، ولا معزولة عن أساسها المتين المستمد من روح الأمة فى عقيدتها وأخلاقها وقيمها ولقد تتغير روح العصر . آنا بعد آن ، وتتجدد ، وتذهب تقاليدها مع التجربة والخطأ ، ولكن تبقى روح الأمة الأصيلة إطارا يحفظ على الأمة كيانها وشخصيتها ومظهرها ، ويجعلها قادرة على مواجهة الأحداث .

وإن علينا إزاء هذه العبارات البراقة التى تدعونا إلى الحركة أن نكون قادرين على معرفة الفوارق الدقيقة بين الأشياء فلا تشتبه علينا ؛ لنفرق بين التقاليد المتغيرة والأخلاق الثابتة ، ولنفرق بين العقيدة التى هى أصول خالدة وبين التاريخ الذى هو حركة البشر ، وفيه الصواب والخطأ والسداد والانحراف ، والنفرق بين الأصل والوافد ، وبين الرواسب القديمة ، والروافد الجديدة .

عملية التغريب :

إن عملية التغريب قد فرضت نفسها على العالم الإسلامى عن طريقين وبأسلوبين : أسلوب داخلى وأسلوب خارجى . أما الأسلوب الداخلى فقد أزالت من المؤسسات الثقافية العربية مناهج الإسلام ، وفرضت مناهجها ، وأقامت إرسالياتها .

ومن هنا فقد حصرت فى يدها أمر التربية والتعليم وإنشاء الأجيال الجديدة وصياغتها على النحو الذى يجعلها غير قادرة على حمل أمانة الأوطان والعقائد . وقد اهتدى التغريب فى هذا بقول (أرازمس) :

« سلمنى إدارة مدرسة ردحا من الزمن أتعهد لك أن أقلب وجه العالم بأسره » .

فلما صفيت كل المفاهيم التى يقدمها الإسلام من عقلية ونفسية وتاريخية طرحت المفاهيم والنظريات والمذاهب الغربية المختلفة المتضاربة المتصارعة وقدمت على أنها « علم » وليس على أنها « فلسفة » وعلى أنها حقائق وليس على أنها فروض تقبل الصح والخطأ ، ولم يقدم خلفياتها فى بلادها ولم يقدم نتائجها وكلها تؤكد الفشل والاضطراب فى أرضها الأولى فكيف بأرض أخرى لها قيمتها وذاتيتها ومزاجها النفسى .

فلما خرج الاستعمار العسكرى من العالم الإسلامى كان قد أقام ركائز ، وأصبح له رجاله وأعوانه ودعاته الذين لم تنقطع الصلة بينه وبينهم فإن أعظم الروابط ما زال هو « التبادل الثقافى » ، وهو تبادل من جانب واحد .

أبرز سنن الإسلام :

كان من أبرز سنن الإسلام ظهور المصلحين والمجددين الذين يلتمسون منهج الإسلام الأصيل ،ويردون الأمم إليه كلما انحرفت عنه ، بتصحيح المفاهيم وتحرير القيم والكشف عن الزيف والشبهات ، فالفكرة الإسلامية الخالدة تتجدد بالنوابغ والأعلام على رأس كل مائة سنة ، ولا تمر فترة دون أن يظهر الإنسان

الممتاز المصلح الذى يعارض التيار المنحرف ويصدع بالحق ، ولقد عرف الإسلام فى خلال تاريخه الطويل نماذج متعددة متصلة من أولئك الأبرار الذين حرروا الأمة من الفتن والبدع والمؤامرات والتحريفات ، والذين وقفوا مواقف مجيدة نصحوا فيها لله ورسوله ، وقدموا الكلمة التى امروا بها من أجل التواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، ووجهوا وأرشدوا ، ولم يخشوا سطوة الظالمين والطغاة .

اليهودية التلمودية والفكر الغربى :

من الفِكَرِ التى يجليها القرآن فى أوضح صوره : فكرة تلك الجماعة التى فرضت على البشرية فكرا مضادا للفكر الربانى المنزل من السماء ، فقد شكلت هذه الجماعة محتوى ومفهوما وفلسفة كاملة وقد جاءت الرسل والرسالات تترى لتصحيح هذا المفهوم . ثم كان هناك الحق والباطل ، ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض﴾ .

ومازال الصراع قائما ومستمرا وسيظل ، وفى القرون الأخيرة امتد الفكر البشرى واستشرى أثره وحاول السيطرة على الإنسانية لولا صمود الفكر الربانى بأيدى حملته من المسلمين .

تلك هى المحاولة التى تقوم بها اليهودية التلمودية وهى تجر العالم كله إلى نطاق الفكرة البشرية المعارضة للتوحيد والفطرة ودعوة السماء ، وهى محاولة لإخضاع العالم للقاعدة الربوية « عالمية الربا » .

لقد فرضت اليهودية التلمودية نفوذها ثم جاء الإسلام ماحيا لها دافعا لوجودها محققا إقامة « أمة الحق فى الأرض » ، ثم مضت التلمودية اليهودية تسيطر على الفكر الغربى كله ، وتحتويه وقد انقاد لها هذا الفكر . ولكنها اليوم وهى تحاول أن تخوض مخاضة النطاق الإسلامى فإنها سوف تعجز ، وسوف تتحطم مذاهبها ، وايدلوجياتها على قاعدة التوحيد ، وفى ضوء الحق والعدل الإلهيين .

وسوف لا تستطيع احتواء الإسلام مهما حاولت .

إن هذه الأمة التى وصفها الله سبحانه وتعالى بأنها خير أمة أخرجت للناس سوف تصمد فى وجه الباطل حتى تجتثه وتدمره .

لم يعرض الإسلام القواعد والحلول مسبقا ولم يطبقها بالقسر والإكراه بل تفاعل مع طبيعة الإنسان ، وطبيعة المجتمع ، فجاء منهجا واقعيا استوعب الحياة والأحداث ، وشارك فى توجيهها حتى اكتملت رسالته وتمت كلمته .

وكان الاجتهاد علامة من علامات النمو والحركة ، إذ كان قادرا على فتح الطريق بين الحضارات والأمم إلى أصالة الإسلام ، حيث يلتقى بكل تطور حادث ويستطيع إيجاد الحلول لكل قضية تحدث مع تغير الزمن واختلاف البيئة .

ولقد أقام الإسلام حضارته وبنى مجتمعه على أساس التكوين الفردى ، واعتبره أساس التقدم وقرر أن الرقابة لا تأتى من فرد على فرد ، ولا من هيئة وإنما هى رقابة المسلم لربه وكذلك أعطى الإسلام للبشرية إجابات واضحة وكاملة عن معضلاته التى يواجهه بالعدل الاجتماعى ، والإخاء الإنسانى والرحمة وإحقاق الحق ، واستجاب للتغيير الاجتماعى والتقدم على طريق النهضة فى سبيل الوصول إلى الغايات الكبرى : الوحدة البشرية وهدم العنصرية .

أزمة الحضارة الغربية :

هل مازالت الحضارة الغربية بعد تجربتها الطويلة قادرة على إعطاء البشرية حاجتها الحقة ، بل هل هى قادرة على حل أزمتها الخانقة قبل أن تعطى ؟

لقد استطاعت أن تعطى فى مجال المادة ولكنها عجزت عن العطاء فى مجال النفس وكان أكبر أزمتها حين فصلت بين المادة والروح والنفس والعقل ، والعلم والدين والأخلاق والسياسة والعقيدة والمجتمع .

وكانت بالغة الخطأ فى إعلاء العنصر ، والقول بأن فكرها هو فكر العالم وحضارتها هى حضارة العالم ، وتاريخها وحده هو تاريخ العالم ، وأن منهج أوربا وفكرها يجب أن يسود ، فيكون قانونا عاما تخضع له البشرية .

ثم جاء من يقول : إنه ليس هناك فارق بين الشرق والغرب ، وكان ذلك كله محاولة لاحتواء الحضارات والأمم والقضاء عليها ، متجاهلا أن الأمم كونتها ثقافات وعقائد وجعلت لها خصائص مميزة ، وأنه من المستحيل أن تنصهر فى بوتقة العالمية ، والأممية .

إن الحضارة الغربية الحديثة بعد أن تركت الدين حين عجز عن إعطائها حق الجمع بين العقل والروح ، واكتفت بمنجزات العلم ، وحاولت أن تقيم لها منهجا على أساس الفكر المادى ، كل ذلك ذهب بها بعيدا عن الفطرة وعن الأصالة وساقها إلى انحراف خطير تواجهه الآن فى صور متعددة من التحلل والانحراف والإباحة ..

إن الغرب نسى أنه لابد من أساس ثابت تبدأ منه الحركة ، وتنتهى عنده ، وإن هذا الأساس لابد أن يكون من أصل أصيل ليس من عند الإنسان ، ولا من صنعه .

هناك حرص واضح من الإسلام فى الفصل بين الفكر البشرى والفكر الربانى والمنزل بالحق على الرسل والأنبياء ، خاصة فى صورته النهائية الخاتمة « الإسلام » فليس الإسلام شبيها بأى فلسفة ، أو مذهب ، أو أيدلوجية ، وليس من حق أحد أن يضعه موضع المقارنة مع الفكر البشرى ، ولذلك فمن الخطر النظر إليه وإلى الفلسفات نظرة المفاضلة ، أو المقارنة .

ولقد جاءت البينات للبشرية من رسالات السماء أساسا فانحرف البعض عنها تحت سلطان العقل ومحاولة الإنسان فى التأويل والتفسير .

ومن هنا افترق الفكر الربانى عن الفكر البشرى ، وظل الفكر الربانى المستمد من رسالات السماء يحمل طابع التوحيد والعدل والحق بينما ذهبت الفلسفات مذهبها وراء الأهواء والمطامع .

وسوف تجد البشرية نفسها بعد المعارضة الشديدة عائدة مرة أخرى إلى المورد الأصيل ؛ لأنها فشلت فى عشرات التجارب والوسائط .

لقد كشفت الدراسات التى أجريت حول أزمات الأمم والشعوب أن التقدم فى مجال العلم والثقافة ليس عوضا عن التربية ، وليس بديلا عن التهذيب الخلقى ، ذلك لأن العلم سلاح له حدان يصلح للهدم والتدمير كما يصلح للبناء والتعمير ، ولابد من أجل استعماله استعمالا صحيحا أن يتم ذلك فى إطار الأخلاق .

ومن أجل ذلك جمع الإسلام إلى العلم والثقافة : التربية حيث ربط التعلم بالخلق ، وجمع بين العلم والإيمان ، وأقام منهجه على تقوى الله ، فلابد فى الإسلام من بناء العقل وبناء الوجدان معا ، وعلى العلم أن يكون وسيلة إلى العمل النافع فى إطار الرحمة والخلق .

ومن ناحية أخرى فإن التقدم العلمى والتكنولوجى لا يتعارض مع الإسلام ولا يغنى عنه ، إنه نمو فى الجانب المادى ، لابد له من ضوابط من العقيدة والشريعة والأخلاق .

وقد تأكد منذ وقت بعيد أن العلوم العصرية لا تفيد المسلمين إلا إذا اقترنت بتربيتهم الدينية ، وثقافتهم الأساسية ، وسارت جنبا إلى جنب مع أوضاعهم وعقائدهم وإن تهذيب المسلمين بالمعارف العصرية إذا تم خارج دائرة قيمهم يزيدهم انحطاطا وفساد أخلاق ، فلا تنفعهم العلوم إلا إذا كانت ضمن دائرة عقيدتهم وقيمهم الأساسية .

وبعد ...

فإن هذه الأحاديث الموجزة إنما هى بمثابة « مفاتيح » لفهم كثير من الأمور التى تحاول شبهات التغريب أن تزيف صحيحها وأن تقدمها للمسلمين فى صورة أخرى غير إسلامية ولا ربانية .

فإذا أردت يا أخى المسلم التوسع فى ذلك فإن هناك الموسوعات التى تحمل التفاصيل وتوسع فى الإيضاح .

هذا وبالله التوفيق

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع : ٩٦٠٣ / ١٩٩٣م

I . S . B . N : 977 - 255 - 076 - 8

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN

هذه الرسالة

* الإسلام ليس دينا تعبديا فقط ، ولكنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهرا وباطنا ، والإسلام فوق كونه دينا كسائر الأديان فهو حركة اجتماعية واسعة تشمل الاعتقاد والمجتمع والأخلاق والدولة .

* وهذا على عكس نظرة الغرب إلى الدين أو فهمه له من أنه إقامة العلاقة بين الإنسان وربه وحسب ، دون أن يكون للدين صلة بإقامة العلاقة بين الإنسان والمجتمع فى شئون الاقتصاد أو السياسة أو القانون أو التربية .. وهكذا .

* ولذلك قام الغرب ـ وأعداء الإسلام والمسلمين ـ بعدة محاولات من شأنها أن تضعف قدسية النص الإسلامى القائم على القرآن والسنة ، وإقناع أبناء المسلمين بأن الإسلام دين عبادة وليس دين عمل ، بل ما هو أخطر من هذا حينما أخذوا يشيعون أن التخلف فى عالم الإسلام يعود إلى الإسلام !!

ـ إن هناك محاولة لحمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب والخروج من ذهنيتهم .

ـ وهناك شبهات وأهواء تحاول أن تشوه تاريخهم ومبادئهم وثقافتهم ، وانتقاص الدور الذى قاموا به فى تاريخ البشرية ، وذلك فى محاولة لخلق شعور بالنقص فى نفوس المسلمين .

* وهذه الأحاديث الموجزة ـ فى هذه الرسالة ـ إنما هى بمثابة « مفاتيح » لفهم كثير من الأمور التى تحاول شبهات التغريب أن تزيف صحيحها ، وأن تقدمها للمسلمين فى صورة أخرى غير إسلامية ولا ربانية .

* و**دار الصحوة** يسرها أن تقدم هذه الرسالة لقرائها الكرام ، داعية الله عز وجل أن ينفع بها شباب أمتنا الإسلامية .

الناشر

